اقرأ

عيسى الناعوري

مارس يحرق معداته

دار المعارف بمصر

مارس يحرق مُعدّاته

عيسى الناعوري

مارس يحرق معداته

اقرأ ١٤٧
دار المعارف بمصر

اقرأ ١٤٧ – مارس سنة ١٩٥٥



الإهداء

إلى ذوى النفوس النبيلة الصافية
الذين يسعون بصدق وإخلاص
لخدمة الحرية والسلام
ولتحقيق السعادة البشرية
أقدم هذه الرواية

ع . ن

أشخاص الرواية

مارس	— إله الحرب عند الرومان
فينوس	— إلهة الحب والجمال
سيريس	— إلهة الحقول والزراعة والحصاد
جوبيتر	— ملك الآلهة
سافيو	— شيخ قرية مانيا وزعيمها
أنطونيو	— ابن سافيو
لونا	— خطيبة أنطونيو
سلفيو	— كاهن المعبد
ديانا	— والدة لونا
فلافيوس	— رفيق أنطونيو ولونا في زيارة روما

القريتان

مانيا وجونو

تمهيد وتعريف

هذا العالم المضطرب ، القائم على فوهة بركان عظيم ، والذى تسيطر فيه السياسة والسياسيون ، عالم الحروب والثورات ، والتدمير وسفك الدماء ، وخنق الحريات . هذا العالم المجنون ليس بالعالم الذى تطمئن إليه النفس ، أو يستريح إليه القلب أو الضمير ؛ فهو لا ينتهى من الاستعداد للحرب ، إلا ليزجّ البشرية فى نيرانها ، ثم ليجلس على الأطلال ورماد الحرائق ، ليمسح جراحه ، ويسترد أنفاسه من آثار الحرب ؛ فهو للحرب يعمل ، وللحرب يعيش .

والحرب أشنع جريمة يرتكبها البشر نحو البشرية ، لأن الذى ينتج عنها هو القضاء على كل ما ينشئه البشر من خير وجمال وعمران؛ هو تدمير الحضارات والمدنيات التى يتعب البشر فى بنائها ، ويجهد العقل البشرى نفسه فى خلق أسبابها ومقوّماتها؛ وهو بالتالى القضاء على أعزّ ما من أجله يحب البشر الحياة : المثل الإنسانية العليا ، وآيات الفن والإبداع الفكرى ، والمال ، والبنين ، والممتلكات .

لذلك يقول بنجامين فرانكلين :

« أتمنى أن أرى اكتشاف وسيلة تستميل الأمم ، أو

تجبرها على أن تحلّ منازعاتها ، بدون أن تعمد الواحدة إلى حزّ عنق الأخرى أولا ؛ وعندئذ يقتنع الناس بأنه ، حتى الحروب الظافرة تصبح فى النتيجة شؤماً على أولئك الذين أثاروها ظلماً ، والذين هللوا لها بعمى فى وقت ظفرهم ، بدون أن يروا جميع عواقبها » .

ومعنى هذا أن الحرب هى أبشع تشويه ، وأسوأ مسخ لوجه الحياة ؛ فهى تزيل بهجتها من النفوس ، ولذتها من القلوب ، وتجعل البشرية تعيش بخوف دائم من هذه الجريمة البشعة التى تذهب بسلام الحياة وراحتها وسعادتها ، وتذهب بكل معنى من معانى الاستقرار الذى تنشده البشرية .

والخوف من الحرب ، أو عدم استقرار الحياة ، يجعل البشرية تصرف همها إلى تأمين وسائل الحماية أولا ، فلا يعود يمكنها أن تخدم تقدم المدنية والحضارة ، وازدهار الفنون والآداب والنشاط الفكرى ، بضمير مستريح وقلب مطمئن ، وتخدم قضية السلام والسعادة والرفاهية .

فليس غريباً إذن أن ترتفع أصوات المفكرين والأحرار ، والراغبين فى سعادة البشرية ، فى وسط جنون الخوف الذى تثيره السياسة العالمية وأطماعها الكبيرة ، داعية إلى قتل الأطماع والقضاء على العوامل التى تثير الحروب ، وتبعث الخوف فى نفوس البشر ، وإلى سيادة السلام والتعاون فى العالم .

ولو انصرف الناس إلى استغلال الأرض . واستثمار كنوزها ودفائنها بثقة وتعاون متبادلين ، لتوصلوا بدون شك إلى تحقيق أقصى حدّ من السعادة لجميع الناس ، ولعاشوا بحب وسلام دائمين .

إن صلة المواطن بالأرض ، هي أساس صلته بالوطن وهي بالتالى أساس صلته بالإنسانية التى هو جزء منها ، ويؤيد هذه الحقيقة ما لمسناه بأنفسنا فى مأساة فلسطين ، من أن أعمق الناس شعوراً بالمأساة بين اللاجئين ، هم الذين تركوا وراءهم أرضاً وبيوتاً وبيارات ؛ فالأرض هى الرابط الأقوى للشعب بوطنه ، لأنها هى نفسها الوطن ، وسعادة الشعب بوطنه باستمرار سلامه معها .

هذه الحقيقة هى التى دفعتنى إلى وضع هذه الرواية ، وهى التى أوحت إلىّ فى أول الأمر بعنوانها « مارس يحرق معداته » ثم هيأت لخيالى موضوعها الكامل بعد ذلك .

لقد رأيت أن الحرب هى السبب الأهم فى عدم تحقيق السعادة البشرية ، فرأيت أن أجعل روايتى دعوة إلى تقبيح الحرب ، وتحبيب السلام ؛ فاخترتُ أن أجعل إله الحرب الأسطورى عند الرومان القدماء ، يندم على أعماله القبيحة فى إثارة الحروب ، وقذف البشرية بالويلات المريعة ، فيحرق أدوات حربه ، وينزل إلى الأرض ليعيد إليها السلام الذى فقدته بسبب جريمته . ولم أجد أوقع فى النفس من تقبيح الحرب ، من ندامة إله على إثارته لها .

ولما كان مارس إلهاً أسطورياً ، فقد كان لا بدّ من أن تكون الرواية كلها أسطورية ؛ ثم لما كان مارس إلها رومانياً ، فقد كان لابد من أن تكون بقية الآلهة رومانية أيضاً ، وأن تكون بيئة الرواية رومانية كذلك، وأن تقع حوادثها فى عهد الرومان .

وما دامت الرواية لم توضع لمجرد العبث والتسلية ، ولا لإبراز البراعة الأدبية والفنية ، وإنما لتخدم فكرة وهدفاً إنسانيين ، لذلك لم أجد أى مانع من أن أختار للرواية بيئة رومانية ، وآلهة وأشخاصاً رومانيين . وسواء أكان مدار الرواية على الرومان فى عهدهم القديم ، أم على العرب فى عصرهم الحاضر ، فلن يغير ذلك من الروح العامة ، التى لأجلها وُضعت الرواية .

ولقد أعرب بعض الأصدقاء عن اعتقادهم بأن وقائع الحياة الحقيقية ، واختيار أشخاص حقيقيين ، قريبين إلى واقعنا الحى ، يزيد فى تأثير الرواية ، ويجعلها ذات لون وطابع أقرب إلى قلوب القراء ، وأكثر مساساً بحياة المجتمع الذى نعيش فيه . وقد حبّذ بعضهم أن ينقلب مارس الحرب إلى إنسان حقيقى يندم على جريمته .

إلا أننى — وقد بينتُ سبب الصبغة الأسطورية للقصة — أقول إن ندامة أى إنسان ، مهما بلغ من علوّ المنزلة الاجتماعية ، لن يكون لها من التأثير فى نفس القارئ ما لندامة إله ، ولاسيما الإله المختص بإثارة الحروب ، وإنزال الكوارث بالبشر . وهذا

من أهم الدوافع إلى جعل الرواية كلها أسطورية .

على أن من المؤكد أن الهدف الاجتماعى والإنسانى الذى تعالجه الرواية ، بارز فيها كل البروز ، بحيث يخرج القارئ منها مطمئناً إلى أنها أدّت غرضها بشيء غير قليل من النجاح .

قد أكون أخفقت فى بعض النواحى فى هذه الرواية ، فلستُ أدّعى لنفسى العصمة ، ولا الموهبة الفائقة ، ولكننى أعتقد بأننى أسهمت فى الخدمة الإنسانية بجهد متواضع ، لا يخلو من جوانب تستحق التقدير .

ولقد تلقيتُ رسالة من الصديقة الأديبة السيدة سلمى خضرا الجيوسى — وقد أقامت فى روما مدة غير قصيرة — تعلق فيها على هذه الرواية بعد أن أطلعت عليها قبل نشرها ، تقول فيها ما يلى :

« لقد قرأت قصتك بشغف ، وهى بلا شك قصة جميلة ، طريفة الموضوع ، وعنوانها يسترعى الانتباه . أما من حيث وضع القصة البيئى ، فإن البيئة تذكرنى بضواحى روما ، والعجيب أنك قد وصفت القرية الجميلة تماماً كما كان يمكننى أن أصف قرية (مُنتانا) قرب روما ، مثلا . وبالطبع إنك اخترت بيئة رومانية ، لتكون البيئة المناسبة لوجود مارس وبقية الآلهة . وبلا شك إن أهل روما وضواحيها ، وكذلك أهل باقى المدن الإيطالية ، ما زالوا إلى اليوم مولعين بإحياء هذه المهرجانات

الدينية ، التى يحتفلون بها فى أوقاتها المعينة ، دون انقطاع . وهى اليوم تُعنى بإحياء ذكرى القديسين ، و (المادونا) ، بعد أن كانت تحتفل بسيريس ، وڤينوس ، وغيرهما ؛ مما يبرهن على أن الإنسان مولع بتكريم ما يعبد ، لإشباع رغبته فى نفسه هو » .

وفى هذه الشهادة ما يجعلنى أطمئنّ بعض الاطمئنان إلى شىء من هذا العمل الأدبى الصغير .

وإنى أقدم روايتى هذه — أول عمل أو جهد فنى أضعه فى حقل الرواية الأدبية — راجياً أن يجد فيه القراء ما يستحق منهم وقتاً قصيراً ينفقونه فى مطالعتها ؛ فلا يشعرون أنهم أضاعوه فى غير نفع ؛ بل يلمسون أننى خدمت فيها أهدافاً نبيلة ، وأفكاراً إنسانية تعتلج فى نفوسهم وعقولهم ، ويرتاحون إلى وجود أقلام تتولى لهم التعبير عنها .

عمان　　　　　　　　عيسى الناعورى

١

الغيوم البيضاء المتقطعة تتناثر فى الفضاء الأزرق الرحيب ، كحملان صغيرة بريئة ترعى فى مرج فسيح أخضر ؛ وشمس الأصيل تلقى بأشعتها الفاترة على المروج والجبال والأودية ، فتصبغها بصفرة النضار . وعلى غيمة كبرعم القطن المتفتح جلست إلهتان فاتنتان ، تنظران إلى سرب من الصخور على الأرض ، جلس على صخرة صغيرة منه فتى وفتاة فى ميعة الشباب المشرق .

فقالت إحدى الإلهتين للأخرى : انظرى يا رفيقتى إلى السعادة التى يطفح بها وجه ذلك الفتى ورفيقته ، وهما يتناجيان بين السنابل المتماوجة . لقد غمرتُ حياتهما بالعافية والشباب المرح ، فكان لا بدّ للحب من أن يجد فى قلبيهما فراشاً دافئاً ناعماً ، وللسعادة من أن ترطب أيامهما بنفحاتها المسكرة .

فقالت الأخرى :

وأنا زرعتُ فى طريقهما الخصب والخضرة التى لا تموت ؛ فلا تقع عيونهما إلا على جمال ؛ فالأعشاب تضحك لهما ، والسنابل تتمايل وتتهامس بغرامهما ، والأشجار والصخور تفىء عليهما ظلالها ، لئلا تضايقهما حرارة الشمس . فأنا وأنت

شريكتان فى سعادتهما ؛ أنا زرعت لهما الخصب ، وأنت زَرعت فى قلبيهما الحب ، وبفضلنا معاً سيستظلان بالسعادة الغامرة.

فأجابت الأولى : أنا سعيدة بك يا رفيقتى الرحيمة ، فإن عملى وحده لا يكفى ليمنح الناس السعادة . أنت وأنا اليدان اللتان تبذرانها فى حياة الناس ؛ وأنت وأنا الإناءان اللذان تنسكب منهما الغبطة والبهجة . أنت تطبعين البسمة المشرقة على وجه الأرض ، وأنا أعكسها حبًّا وغبطة فى قلوب أبناء الأرض .

وابتسمت الإلهتان الجميلتان ، وهما تنظران إلى حيث يجلس أنطونيو ولونا تحت شجرة سنديان كبيرة تظللهما ؛ هو يطوّق خصرها بإحدى يديه ، والثانية تعبث بشعرها ، فى حين يستريح رأسها ويدها اليمنى على صدره ؛ وأغصان شجيرات الورد على جانبيهما ، وسنابل القمح ، ودوالى العنب التى تملأ الأرض أمام أعينهما ، جميعها تشترك فى توفير الغبطة لهما ، بما تنفحهما به من الشذا ، وما تشيعه فى نفسيهما من إحساس الجمال والأمن وبركة الحياة .

ولم تكن سعادة الإلهتين ، فينوس وسيريس ، أقل من سعادة الحبيبين ، وهما يتهامسان بنجوى قلبيهما على سمع السنابل والدوالى وشجيرات الورد ، ويتأملان منحة الخير والخصب والبركة ، التى وهبتها الأرض الطيبة لهما ولأهل قريتهما .

وانفلت أنطونيو من فتاته بلطف ، ومضى فمدّ يده إلى

عنقود من العنب فى دالية قريبة ، كان فى بواكير النضوج . فتناوله بيده وعاد به ، وقال وهو يعود إلى الجلوس فى مكانه إلى جانبها : لنكن أول من يذوق باكورة العام فى كرومنا .

ومضت يده تتحسس الحبات الزبرجدية فى العنقود ، حتى وقعت على أنضج حبة فيه ، فقطعها منه ومدّ يده بها إلى لونا . وقال مكملا كلامه : ولتكن الحبة الأولى من نصيبك أنت .

فابتسمت لونا بدلال وقالت : بل ستكون لك أنت .

فأجاب أنطونيو :

بل الأولى لك أنت . إن سعادتى لهى فى أن أقدم إليك أجمل الأشياء وألطفها ؛ وباكورة العام من عناقيد دوالينا هى بعض هذه الأشياء الجميلة اللطيفة . وهل نسيت أن ليديك الصغيرتين تعباً فيها ؟ ! افتحى فاك !

ولكن لونا أصرت على أن تكون الحبة له ، فقال باسما :

إذن نقتسمها بأسناننا معاً ، فافتحى فاك . . .

فضحكت لونا ، وانفرجت شفتاها وأسنانها لتتلقى حبة العنب من بين أصابع أنطونيو ، وعيناها ترمقانه بحب وله ، وقلبها يرقص بين ضلوعها بفرحة الحب والشباب .

وقرّب أنطونيو فمه إلى فمها ، وأمسك بطرف الحبة بين أسنانه ، فى حين التقت شفتاهما بقبلة سريعة عابثة . ثم راح الاثنان يبحثان فى العنقود عن الحبات البادئة بالنضوج ، فيقطعانها ويتناولانها.

وقال أنطونيو وهو يرمى بقية العنقود إلى الأرض :

ما ألذ التعب متى كانت نتيجته ثماراً لذيذة حلوة .

فأجابت لونا ، وقد مضت عيناها تتأملان الكروم والحقول المترامية أمامها بلذة وحنين : حينما أقطف عنقوداً من دالية ، أو سنبلة من حقل ، أشعر بأن كل ما تحملته من حرّ الصيف وبرد الشتاء ، يزول ويتحول فى نفسى إلى رغبة فى المزيد من العناء والعرق .

وعاد أنطونيو يطوقها من جديد بذراعيه ، فتلقى برأسها على صدره ، ويعودان إلى التأمل من جديد فى كل ما حولهما ؛ فتراءى لهما كل شىء يضحك بغبطة وجمال : من خضرة الكروم والحقول ، إلى زرقة الأفق البعيد ، إلى أشعة الشمس البريئة المرحة . . .

إن فى صدريهما لسعادة غامرة ، وفرحاً لا يوصف ؛ فهذه الأرض لهما فيها عرق مسفوح ، ككل فرد آخر من أبناء قريتهما . فليس فى القرية من لا يشعر بأن للأرض جذوراً عميقة فى قلبه ودمه ، فهم جميعاً يبذلون عرقهم بملء الغبطة لهذه الأرض الخيرة ، التى لا تبخل عليهم بخيراتها وعطاياها ، بل تقدم إليهم بدل كل قطرة عرق يسقونها شبعاً وريًّا ، وتوفر لهم متعة القلب والسمع والبصر .

إنها فى خضرة دائمة ، لا تفرغ مروجها أبداً فى الفصول

الأربعة ؛ وعناقيد أشجارها لا تنتهى ؛ فهم معها فى حلف شريف لا يمين ،وهى معهم فى أحب ما تشتهى وما يشتهون من وفاق وسلام ، لا تخلف لهم ظناً ، ولا تخيب لهم أملا .

إنهم يسعدون بالشمس والقمر ، وليالى الشتاء لا تحمل إليهم غير السلام ، وإلى مزارع العرق المعصور من جباههم وسواعدهم غير البركة والرخاء .

الشيخ يتجدد شبابه برؤية الأشجار التى غرسها فى جراح ترابها ، فملأت عينه وحسه ، كما ملأت معدته .

والكهل لا يرى فى ساعديه خيراً إن لم يجعل قوتهما للعمل فى الأرض، ولا يرى كرامة لنفسه إن لم يُرِق عرق جبينه غزيراً حاراً بين شقوق التراب ، حيث تنحدر البذور والحبوب ، لتعود إليه أشجاراً وسنابل مكتنزة القطوف والرؤوس .

والفتاة والشاب ، لا سعادة لهما ولا حياة بدون الأرض ، فشبابهما وقف على خدمتها ، وعافيتهما منها ولها . وما يطيب لهما الحب والنجوى ، إلا والأرض تضحك لهما ، وتبارك حبهما ؛ فالضحكة الخضراء فى وجه الأرض ، هى التى تنعكس ابتسامات سعادة فى وجوه أهل الأرض ، ورفرفات غبطة فى قلوبهم ؛ أما الأرض العابسة الجافة ، فما توحى بغير العبوس والانقباض والكآبة .

حتى الأطفال فى ألعابهم الصبيانية المرحة ، كانوا يقلدون

الكبار فى حب الأرض ؛ فلكل منهم آلاته الصغيرة لينبش التراب ، وما يكاد الواحد منهم يبلغ سن العاشرة ، حتى يسهم فى حمل الرفش والمعول ، يشق بهما الأرض بيديه الطفلتين ، ويغمر ثلومها بالماء ، لتمنحه وتمنح والديه خيراتها .

وما كان أشدّ سعادة الإلهة الطيبة سيريس بهذا النشاط ، وبهذا الحب العميق للأرض ، إنها لتبارك هؤلاء الناس الطيبين المخلصين ، المنصرفين عن كل شىء إلى العمل وحده ، وتوفر لهم من خيرات الأرض ما يزيد كثيراً عن حاجتهم ، فيمضى الشبان والفتيات كل يوم إلى القرى والمدن المجاورة ، ليبيعوا ما يفيض عن حاجتهم من غلات أرضهم وخيراتها ، ومن إنتاج مواشيهم ودواجنهم ، فيوفرون بذلك القوت اللذيذ لجيرانهم .

وفى طريق عودتهم إلى القرية ، تتردد فى الجبال والأودية أصداء أغانيهم السعيدة ، فتطرب على وقعها الحقول الخضراء ، وتترنح السنابل والشجيرات والدوالى ، المشرئبة أعناقها على التلال الغارقة فى الجمال والسكون .

* * *

كانت لونا وأنطونيو فى مجلسهما ذاك يتمتعان بسعادة غامرة : فى قلبيهما حب برىء لذيذ مسكر ، وأمام عيونهما متعة الجمال المترقرق فى الطبيعة المشرقة . وعينا فينوس الجميلة ترعيانهما وتباركانهما ، كما ترعى عينا سيريس خصب

الحقول ، وخضرة المروج والتلال .

ولقد ذهبا فى صباح ذلك اليوم يبيعان فى القرية المجاورة بعض ثمار أراضيهما ، ولم يعودا من هناك إلا منذ ساعة ، أو بعض ساعة . وفى غمرة الحنين الروحى ، وتحت نداء الجمال الذى يتردد فى السهول والجبال الضاحكة ، والمروج التى يندفق منها الطيب ، والوديان السائلة بسبائك اللجين ، خرجا معاً يتمليان من رحيق الحب ، ومن نشوة التأمل فى السحر المشرق البديع ؛ هذا السحر الذى أسهمت أيديهما فى خلقه ، وأسهم عرقهما فى سقيه وإنمائه .

وعاد أنطونيو يقول ، وعيناه ماتزالان حائمتين على الحقول المترامية أمامه : آه ! لكم يؤلمنى ما أراه دائماً لدى جيراننا من جفاف الأرض ، وما أراهم يعيشون فيه من خمول وبطالة .

فقالت لونا : مساكين ! إننى أرثى لحالهم كثيراً ، وأتألم لحياتهم . إنهم لا يدركون قيمة العمل وفائدته لأجسامهم ونفوسهم ، ولحياتهم كلها .

ــ كلما ذهبت أبيع فى أسواقهم شيئاً من خيرات أرضنا شعرتُ بأن ليس لدى جيراننا ما يربطهم بالوطن ، وبالحياة المستقرة الشريفة .

ــ حقّاً إن الأرض لهى الرابطة الكبرى للمواطن الصالح بشعبه ووطنه ؛ ومن لم ترسخ صلته بها لا يستطيع أن يكون

قوى الصلة بوطنه ، ولا بشعب وطنه ، ويسهل عليه أن يعيش فى كل أرض ، بلا حبّ ، وبلا أمل ، وبلا عاطفة جميلة . وروما العظيمة لا يمكنها أن تعيش حرة قوية بشعب لا يرتبط بها برباطات حبّ الأرض ، وحبّ كل ما فى الأرض من ذكريات وروابط .

ـ لو أهدِىَ إلىّ العالم كله لأتخلى عن حقلى وبيتى فى قريتنا هذه ، لرفضت الهدية ، لأنه ليس فيها شىء من عاطفتى ولا من عرق جبينى ، ولا من تعب يدى .

ـ إن الإنسان لا يستطيع أن يجد أية لذة فى مكان أو شىء إلا إذا كان لقلبه صلة متينة به ؛ وصلته هذه إذا رسخت فى أعماق قلبه . علمته القوة ، ودفعته إلى كل تضحية فى سبيل المحافظة على ما يحبه . أما إذا خلا القلب من كل حب أو صلة فى مكان ما ، فليس من الممكن أن يجد ما يدفعه إلى التمسك به ، أو بشىء فيه .

ـ لقد أرمَضَت نفسى كثيراً رؤية أطفال جيراننا ، بثيابهم الرثة ، وهم يلعبون بالتراب ، على أرض جرداء لا يضحك فيها عشب ولا زهر ، ولا يفىء فيها شجر . آباؤهم عاشوا كسالى فاقدى الهمة والنشاط ، فجاءوا هم يشقون بنتائج ذلك الكسل البليد المجرم .

ـ الشكر لإلهتنا الجميلة سيريس ، التى تتعهد حقولنا

وبساتيننا بالرعاية فتخصب ، وتغمرها بابتساماتها الحلوة ، فتفيض بالبركة والخير .

* * *

وانحدرت الشمس نحو الأفق البعيد ، لتغيب فى مياه المحيط الدافئة الزرقاء . وشاهدت خيوطها المتراجعة الأخيرة جماعات العمال العائدين من الحقول ، والرعاة يسوقون أغنامهم من المروج البعيدة ، والعصافير العائدة إلى رءوس الأشجار ، تملأ الفضاء زقزقة مرحة حلوة .

ومن الروابى الخضراء ، تنزل أفواج المتنزهين السعداء ، والعشاق الهائمين ، فى طريقها إلى القرية ، لتستسلم بعد ساعات إلى الأحلام والرؤى ، ولتستعيد نشاطها ليوم جديد تقدم فيه للأرض الطيبة قرابين من العرق الغزير الحار ، وجهود السواعد القوية النشيطة .

ونهض أنطونيو عن الصخرة التى كان يجلس عليها مع فتاته ، والتى كانا يدعوانها « صخرة الحنين » ، وكانا قد نقشا فى لقائهما الأول على أحد جوانبها الحرفين الأولين من اسميهما ، وتعاهدا بقبلة طويلة حارّة على الإخلاص والوفاء ، وعلى أن تكون هذه الصخرة ملتقاهما كل مساء .

ثم مد أنطونيو يده إلى لونا لينهضها وهو يقول :

هلمى بنا نعود قبل أن يهبط الظلام .

فقفزت لونا عن الصخرة كالأرنب الرشيق ، ويدها فى يدى أنطونيو ، وقالت : إن خلواتنا السعيدة تمر بسرعة غريبة .

— وددتُ لو كان العمر كله خلوة واحدة ، لا نفترق فيها لحظة .

ثم مضيا يجمعان باقتين من الأزهار ، من بين الصخور ومن أطراف الحقول ؛ حتى إذا امتلأت أيديهما بها ، ألقيا على صخرتهما الحبيبة وسربها الجميل نظرة تفيض بالسعادة ، وراحا ينحدران ليختلطا بجموع العائدين إلى بيوت القرية ، وفى يد كلّ منهما باقة صغيرة من عروق الأزهار البرية ، ليضعاها على قدمى ڤينوس فى معبد القرية ، فى طريق عودتهما .

وشهدت بقايا أشعة الشمس الغاربة أذرع إلهتين فوق الغيوم ، تمتد لتبارك الشاب والفتاة السائرين فى الطريق ، وتحيطهما بحنانها العذب الدافئ .

٢

كان أنطونيو شاباً فى ميعة الزهو ، وإشراق الجمال المرح ، لا يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره . وكانت لونا فتاة ريا الصبي العذب ، والجمال الريفى ؛ وهى فى التاسعة عشرة من العمر . وقد جمعت بينهما الجيرة فى المنزل . والجيرة فى الحقل ، كما جمعت بينهما رفقة الطريق إلى القرى المجاورة ، حينما يذهبان ليبيعا غلات الأرض ، الزائدة عن حاجتهما وحاجة أسرتيهما ، من حين إلى آخر .

وكانت الألفة والجيرة ورفقة الطريق ، تجعل من ظهور أنطونيو ولونا معاً فى كل مكان ، أمراً مألوفاً وطبيعياً فى القرية ، فلم يكن اجتماعهما ليثير ريبة ، أو يدفع إلى همس ؛ لا سيما أنه ليس فى القرية كلها من لا يثق بهما ، وينظر إلى شبابهما ونشاطهما وإخلاصهما ، بملء الإعجاب والرضا .

وكانا لا يكادان يجدان من وقتهما ساعة فراغ ، حتى يهرعا فيها إلى الحقول ، يقطفان الأزاهير البرية الجميلة ، ويعودان بها الى حيث يقف تمثال ڤينوس ، حارسة جمالها وراعية أحلامهما ، فينثرانها على قدميها الجميلتين العاريتين ؛ أو ينصرفا إلى قضاء لحظات على الصخرة الصغيرة التى نقشا

عليها وثيقة حبهما البرىء .

وكانت علاقتهما هذه تثير الغبطة العميقة فى قلب والد أنطونيو ، وقلب والدة لونا ؛ فقد كان من أعذب أمانيهما أن يريا أنطونيو ولونا يجتمعان فى عش واحد ، ويؤلفان أسرة سعيدة جديدة ، وينجبان للأرض أيدياً جديدة أخرى تعمل لخصبها واستدرار خيرها ، وللحياة مولودات جديدة تزيد فى بهجتها وروعتها ولذّتها .

وحينما كانا يريان أنطونيو ولونا يتضاحكان فى الحقل ، أو يعدوان بين الأشجار كالغزلان المرحة ، كان ينظر كلٌّ من الوالدين السعيدين إلى الآخر ، معرباً عن فرحه الكبير بهذه الألفة الحلوة بين ولديهما .

وأخيراً رأى والد أنطونيو أنه قد آن له أن يخطب له لونا فى حفلة تفرح فيها القرية كلها ، وتفرح معها القرى المجاورة أيضاً ؛ ولذلك تواعد هو والسيدة « ديانا » ، والدة لونا ، على موعد لحفلة الخطوبة ، وأخذا يعدّان لها العدة .

* * *

كان والد أنطونيو شيخاً جليلا اسمه « سافيو » ، يحبه جميع أهل القرية ويحترمونه ، فقد كان لهم المثال الأروع فى العمل والسيرة ، وكان بحكمته يرشدهم ويوجههم . وبفضل مشورته ساد القرية كلها شعور الألفة والمحبة ، وروح التعاون والعمل

المخلص للخير العام . وهذا كان الأساس الذى قامت عليه سعادة القرية ورخاؤها ، والبركة التى تمرح فى أراضيها .

ولقد ربّى ذلك الشيخ الكريم أولاده على أنبل السجايا . وكان أنطونيو هو الوحيد الباقى منهم ، بعد أن توفى إخوته الثلاثة الذين سبقوه فى الولادة ، فتركوا فى نفس الوالد الشيخ جراحاً دميت فى قلبه ، ولكنه تجلد عليها ، وكتمها بالعمل الدائب فى الأرض ، وفى تربية ابنه الوحيد الباقى ، وتنشئته على أخلاق الرجولة ، ومزايا النبل والشهامة .

ولقد كان يوصيه دائماً بأن يتشبه بالأرض فى أخلاقه ، فكان يقول له : تعلم ، يا ابنى ، من الأرض ، فهى تقدم لك أروع الدروس فى السخاء ، وفى الحلم ، وفى الابتسام . ومن استطاع أن يتشبه بها فى كل هذه الدروس ، استطاع أن يضمن السعادة لنفسه ولمن حوله .

وكان يوصيه كذلك بحب العمل ، وعدم الملل منه . فكان يقول له : العمل ، يا بنىّ ، هو الوسيلة الوحيدة الشريفة للحياة الرخية الراضية ، والذى يحبّ العمل ، وينصرف إليه بإخلاص ، لا يمكنه أن يجد وقتاً للعداوات ، وتبرأ نفسه من الحسد ، والطمع والظلم ، والعدوان ، ومن كل رذيلة أو نقيصة خلقية ، ويحب أن يرى الجميع يعملون مثله ، ويسعدون معه . وإذا امتلأ قلبه بالهم أو الحزن ، فلن يجد وقتاً للتفكير فى همومه وأحزانه ، بل

يسلوها بالعمل فى وقت قصير . والعمل المخلص هو سبيل سعادة الأوطان والشعوب ، فاعمل يا بنىّ بجد وأدب ، وحرّض الآخرين دائماً على حب العمل الدائب .

ولذلك نشأ أنطونيو كما تنشأ الزهرة فى الأرض الريّا : جميلا نشيطاً ، مشرقا بالشباب والحيوية والمرح .

لقد قويت بالعمل عضلات جسمه الريان ، كما قويت نفسه بالفضائل ، فكان شجاعاً ، صبوراً ، وكان شهماً يسرع إلى النجدة والإغاثة حيثما تطلبهما موقف أو ظرف . فكان لكل ذلك زهرة فى العيون ، وعطراً فى القلوب والنفوس ؛ تضاحكه صبايا القرية ، وعلى شفاههن ابتسامة الوردة الندية ، كما يضاحكه القمر فى ليالى الصحو الجميلة ، وتدعو له الأمهات والعجائز بأعمق ما فى قلوبهن ، لتحفظ الآلهة شبابه وجماله . وبين رفاقه الشبان كان دفقة من حيوية ، وعبقة من حبور ؛ ولمجالسه بينهم صدى وحديث فى جميع بيوت القرية ، فتباركه الشفاه ، وتدعو له القلوب .

ولم تكن لونا ، فى عيون أهل القرية ، دونه منزلة ؛ فهى مسك وطيب على كل لسان ، وصلاة دافئة فى كل قلب ، ولا سيما فى قلوب الشبان والأمهات . أما أطفال القرية ، فكلهم حبيب إلى قلبها ، وهى حبيبة إلى قلوبهم جميعاً ، لا ترى طفلا فى بيت أو فى حقل ، أو فى طريق ، إلا وتنحنى عليه لتلاعبه

وتضاحكه ، وتطعمه مما قد يكون معها من حلوى أو ثمار . وما كان يراها طفل أمام بيتها ، أو سائرة فى الطريق ، أو خارجة إلى الحقل ، حتى يرفع صوته منادياً ببراءة ليلفت إليه انتباهها :

— لونا ! . . . لونا ! . . .

فتجيبه لونا بابتسامة حلوة ، وترفع يدها فوق رأسها تحييه بحركات أناملها ، إذ كانت ماضية لأمر يتطلب السرعة ، أو تنحرف نحوه لتقبله وتضاحكه ، ثم تمضى لحالها ، ويدها تلوّح له فى الفضاء بتحية طويلة .

ولم يكن لها سوى أمها وأخ أصغر منها بسنة واحدة ، كان هو رجل البيت ، فكانت تشترك معه هى وأمها فى أعمال الحقل ، وتمضى غالباً وحدها إلى القرى المجاورة لبيع الغلال والفواكه .

ولقد تفتحت كبرعم الوردة الغضّ على ندى الفجر ، فكانت فتنة العيون ونشوة الأرواح . وتفتحت نفسها على لمسات الحب الناعمة ، حب أنطونيو ، فكانت لذلك تجد الحياة كلها حلوة جميلة ، حتى العمل فى الحقل بيديها الناعمتين ، أو حمل الفواكه والبقول على رأسها لبيعها فى القرى المجاورة ، كل ذلك كان جميلا حلواً ، لأن فرح قلبها ، ونشوة روحها ، كانا يجمّلان لها كل شىء ، ويسيغان فى نفسها كل شىء .

إنها لتغدو مع الفجر لأعمالها ضاحكة فرحة ، وتأوى فى

المساء إلى فراشها دافئة القلب بحلاوة الحياة . وكالفراشات في خضرة الربيع ، وفى تفتح البراعم ، كذلك كانت تشعر بأن فى نفسها أجنحة ترفرف ، وفى كل ما حولها ربيعاً أخضر ، وبراعم متفتحة ، وأنساماً بليلة ، تحمل إلى روحها أحلى ما فى الربيع والزهر من شذا وبهجة .

وكانت لونا تجد فى أنطونيو خيرِ معين ، وخير رفيق ، فقد كان يهتم بعملها أكثر مما يهتم بشئونه الخاصة . وكان يسعده كثيراً أن يحمل عنها الفأس أحياناً وهى تعمل فى الحقل ، ليريحها ، ويتابع هو عملها ليسمح لها بلحظات راحة تنشّف فيها قطرات العرق الحارّة المنحدرة فى سيول رفيعة على وجهها .

وأما فى السوق فقد كان يبيع بضاعتها قبل بضاعته ، ثم يعود معها إلى القرية هانئاً سعيداً ، لأن فتاته إلى جانبه ، ولأنها تسعد بما يبذله لها من حنان وحبّ ، فتفيض سعادة روحها ابتسامة غبطة على ثغرها ، يُشرق لها وجهها الملائكى الجميل .

٣

كان اسم القرية « مانيا » ، وكانت تقوم على ثلاثة تلال متقابلة ، بينها واد عريض ، تنحدر إليه أودية أخرى أصغر منه من بين التلال . وتصب فيه مياه القنوات التى تنساب إليه من عيون القرية وينابيعها المتعددة . وكانت مياه الوادى صافية ضحلة فى الصيف ، فلا يجرى فيه غير ما تحمله إليه القنوات فى العيون ، أما فى الشتاء فكانت مياه الأمطار تتدفق إليه من الجبال والسهول ، فتندفع إليه بعنف وهى تهدر هديراً صاخباً حتى إذا وصلت إلى الشلال العريض العالى ، عند الطرف الغربى من القرية ، تزحلقت عنه بجلبة عظيمة ، أشبه بضوضاء عشرات الآلات الضخمة .

وتحت الشلال كانت تمتد وتترامى إلى مسافات بعيدة ، كروم العنب ، وحدائق التين والرمان والخوخ والسفرجل ، وغيرها من الأشجار المثمرة ، ينساب الوادى بينها متغنيا بخريره العذب ؛ حاملا معه دفقات الحياة فى عروق الشجر ، وفى جذور الحشائش والأعشاب والأزاهير البرية .

وفى كل حديقة أو حقل ، تقوم الأكواخ المصنوعة من الطين ، أو من الخشب ؛ والعرائش الصيفية المصنوعة من عروق

الأشجار ، يقيم فيها النواطير والحراس ، أو يقيم فيها الفلاحون في وقت القطاف أو الحصاد ، حين يخرجون إلى الحقول ليستمتعوا طويلا بضوء القمر والنجوم في الليالي الصافية ، ويستمتعوا بنسيم الحقول المنعش ، وحرية الفضاء العريض الجميل غير المحدودة .

وتترامى خلف التلال ، إلى جميع الجهات ، سهول فساح تدر الخيرات في جميع فصول السنة ، بفضل ما يبذله فيها أهل القرية — صغاراً وكباراً — من النشاط والعناء والجهود المباركة ؛ فهي حقول للحبوب والخضر الموسمية ، أو كروم للعنب .

وأما السكان فقد كان الأمن والسلام والتعاون سائدة بينهم ، كأروع وأحلى ما يكون الوئام في الأسرة الواحدة :

الكل يحبون الأرض ، والكل يعملون فيها ولها . وليس بينهم إلا كل قانع بقسمته ، مقبل على أرضه ، يبذل فيها نشاطه وعرقه ، فتعطيه من كنوزها ما يجعله يعيش راضياً عن نفسه وعن حياته ، وعن أرضه وقريته ، وعن جيرانه ؛ لا يطمع في ما لغيره ، ولا يخشى أن يطمع غيره في ما لديه . كل منهم يحبّ أرضه ، ويحب عمله ، ويقدر شعور الآخرين في حب أرضهم وعملهم .

وليس بينهم من يشعر بأنه عالة على الآخرين ؛ فإذا أقعدت الأيام أحدهم ، وأعجزته عن مواصلة العمل ، ولم يكن

له من يعمل فى مكانه من أسرته ، تطوع أهل القرية بالعمل فى أرضه ، كل منهم فى وقت فراغه ، أو أحضروا له عاملا من أبناء القرى المجاورة ، ليستثمر له أرضه ، لقاء جزء معين من محصولها ؛ وهكذا تظل أرضه تدر له الخير كعهده بها فى قوته ونشاطه .

وما كان أسعدهم بهذا التعاون الكريم ، فقد كانوا يشعرون بأن جوع أحدهم هو جوعهم جميعاً ، وأن شقاءه هو شقاؤهم ، وأن سعادته هى سعادتهم ؛ فما يمكن أن تشبع القرية وفيها جائع ، أو تنعم وفيها شقى ، أو تستريح وفيها متعب .

* * *

وكان فى مانيا معبد أنيق كبير ، تنتصب فى جوانبه تماثيل كبيرة جميلة من الرخام للآلهة ؛ ففى الصدر تمثال ضخم لجوبيتر ، وعلى جانبيه تمثالان أصغر منه ، أحدهما على يمينه للإلهة جونو زوجته ، والثانى على يساره ، للإلهة ڤستا ، حامية العائلة والحياة الزوجية .

وإلى الجهة اليمنى من المعبد تمثال من المرمر النقى الناصع للإلهة سيريس ، إلهة الخصب والزرع والحصاد ، يقابله على الجهة اليسرى تمثال آخر رائع الجمال للإلهة ڤينوس ، إلهة الجمال والحب ، وحامية العذارى .

وكان يقوم على خدمة هذه الآلهة كاهن شيخ اسمه

سيلڤيو ، ولكن أهل القرية كانوا يدعونه « الأب المقدس » ، وهم يثقون به ثقة كبيرة ، ويؤمنون بأنه الوسيط بينهم وبين الآلهة . ولم يكن له من عمل سوى أن يصلى ، وأن يرفع القرابين التى يقدمها أهل القرية فى أوقات متفرقة إلى الآلهة ؛ فهذه زوجة سعيدة تقدم بواسطته قربانها للإلهة ڤستا ؛ وهذه فتاة عذراء سَعِد قلبها بدفء الحب ، ترفع قربانها إلى ڤينوس ؛ وذلك شيخ شبع من العمر ، يقدم قربانه الى جوبيتر ، ملتمساً منه أن يرأف بروحه عند الموت القريب ؛ وأمثال هذه القرابين من غير هؤلاء .

وكانت الصبايا يستشرنه فى شئون الحب ، فيكشف لهن مخبآت الغيب التى كثيراً ما كانت تتحقق كما يكشفها ، أو قريبة جداً مما يكشفها ؛ ويعقد صلات الهوى بين قلوبهن وقلوب من يحببن بالتعاويذ والرقى .

ولكن المواسم التى كانت القرية كلها تشترك فيها بمهرجانات عظيمة ، كانت مواسم الغلال والثمار . إذ ذاك كان الجميع يمضون إلى المعبد حاملين السنابل وقطوف الثمر ، ايضعوها على قدمى سيريس ، قرباناً زكياً يعبّر عن عمق شكرانهم لها ، لأنها تضع البركة دائماً فى حقولهم وبساتينهم ، وتهبهم الخصب والرخاء .

ولم يكن أحد من أهل القرية يتخلف عن هذا الاحتفال ،

فى جميع مواسمه . حتى الأطفال الصغار ، كانوا يرفعون السنابل الصفراء أو عناقيد العنب ، بأيديهم الصغيرة . وهم يرتلون فرحين ، ليضعوها على أقدام حارسة حقولهم ومباركة غلالهم .

وفى مواسم الورود والأزهار ، كانت الصبايا يتسابقن إلى عقد الباقات حول قدمى ڤينوس فى المعبد ، وكان الشبان لا ينفكون يغمرون تمثالها بالباقات الجميلة ، كما يغمرون أيضاً تماثيل الإلهة سيريس ، المنصوبة على التلال الثلاثة التى تقوم عليها القرية .

لقد كانت « مانيا » على أحبّ ما يكون الوئام والسلام مع الآلهة ، كما كان كلّ من فيها على أحبّ ما يكون السلام والوئام مع نفسه ، ومع جيرانه فى قريته . وحيثما يكن الوئام والسلام ، تكن البركة والخير وسعادة الحياة .

* * *

وعلى مسافات غير بعيدة من قرية مانيا ، كانت تقوم قرى أخرى ، أقربها قرية اسمها « جونو » ، دعاها أهلها كذلك على اسم الإلهة جونو ، زوجة كبير الآلهة جوبيتر .

ولكن أهل جونو كانوا على نقيض جيرانهم أهل مانيا ؛ فهم لا يعملون فى الأرض ، ويعتبرون العمل فيها شيئاً حقيراً لا يليق بهم ؛ ولذلك كانت أراضيهم جرداء قاحلة ، إذا نبت فيها العشب والحشيش والأزاهير البرية من فعل الطبيعة وحدها ، فلا تعيش إلا زمناً قصيراً جداً . وتكاد العين لا تقع على سنبلة

فى حقل ، أو شجرة فى حديقة ، أو سوسنة فى مرج ، إلا إذا وفد على قريتهم غريب ممن يعرفون قيمة الأرض ، وقيمة البذرة التى تنحدر فى شقوق التراب . ولكن أمثال هذا الغريب لم يكونوا يستطيعون البقاء طويلا هناك ، لأن اهتمامهم بالأرض كان يجلب عليهم سخرية النساء والرجال والأطفال فى جونو .

ولكن كان فى القرية أفراد قلائل يتعاطون التجارة . وكان الشبان يترقبون نشوب حرب هنا أو هناك ليلتحقوا بها مأجورين ، ويعود من يعود منهم إلى القرية بعدها بشىء من الغنائم أو الأسلاب ، ليعيش بها مع أهله وذويه مدة أخرى . وكان هناك شبان آخرون يذهبون إلى بعض المدن ، ليعملوا فى خدمة الأغنياء مدة ما ، ثم يعودون إلى القرية لقضاء فترات من البطالة والخمول .

وهكذا كان أهل جونو يعيشون على ما يحمله إليهم شبان مانيا وصباياهم من الثمار والبقول والحبوب ، ونتاج المواشى والدواجن ، يبيعونها لهم ويبتاعون منهم ما يحتاجون إليه من ملابس وأمتعة أخرى ، إذا وجدت فى متاجرهم الصغيرة .

ولكم كان الجونيون ينظرون إلى وجوه شبان جارتهم مانيا ، فيرون الحياة والبشر يتدفقان منها ، وإلى أجسامهم فيرونها تتماتع لفرط العافية والقوة ، فكانوا يحسدونهم على البشر والعافية ، ويتجاهلون — أو هم لا يعلمون — أن الأرض التى يحبونها ويخلصون فى خدمتها ، هى التى تمنحهم هذه المنح الجميلة

السخية ، إلى جانب ما تقدمه لهم من خيراتها وكنوزها .

ولكن صبايا مانيا وشبانها لم يكونوا يفطنون إلى نظرات الحسد من جيرانهم ، لأن قلوبهم البريئة المسالمة لم تكن تعرف الغش والحسد لإنسان . ولكنهم على العكس من ذلك كانوا لا ينفكون يفصحون عن ألمهم العميق لانصراف الجونيين عن استغلال أراضيهم ، ويودّون لو كانت أراضي جارتهم دائماً ممرعة ضاحكة كأراضيهم ، وحقولها تطفح بالخصب والحياة مثل حقولهم.

وكثيراً ما كان المانيون يدعون جيرانهم إلى قريتهم ، ويقدمون لهم من خيرات أرضهم ، ويحاولون جاهدين أن يبثوا فيهم حب الأرض والعمل .

وكان الشيخ ساڤيو لا يفتأ يزورهم ، ويجتمع بشيوخهم ، أو يستقبلهم في بيته وحقله ، ويكثر لهم من النصح .

كان يصوّر لهم أرضهم جنات ممرعة في الصيف والشتاء ، وفي الربيع والخريف ، كأراضي قريته ، ويمنيهم بالثمار الطيبة ، والخمور اللذيذة ، والحياة الحلوة ؛ ويشرح لهم جمال العمل وما يبعثه في النفس من حب الحياة ، ومن الحيوية والنشاط المتدفق ، وما يثيره في محبيه من حب للآخرين ، ومن رغبة في السلام مع الجميع ، وفي التعاون مع الأقربين والأبعدين .

كان يقول لهم إن مَن يحب أرضه وعمله ، لا يمكنه أن يعرف معنى للكراهية ، أو للاعتداء على الآخرين ، أو لرغبة

الشرّ والأذى لإنسان ؛ وإن البطالة هى الشرّ كله ؛ وإن جفاف الأرض الدائم لا يوحى فى النفوس بغير الجفاف من الخير والفضيلة والسلام ، ولا يثير فيها إلا الشرّ والمكر وحب الأذى .

كان يقول لهم كل ذلك ، ويفهمهم أن السلام مع الأرض هو أساس السلام مع الحياة والناس .

ولكن الأيدى التى اعتادت الراحة ، والنفور من خشونة الفأس والمعول والرفش ، كانت تأبى الرضى بالتدرب على استعمالها ؛ والعيون التى اعتادت أن ترى جفاف التراب مدى السنين الطوال ، كان من العسير عليها أن تألف الخضرة والربيع بعد ذلك .

وكان ذلك يحز فى نفسه كثيراً ، كما كان مبعث ألم دائم للمانيين ، الذين اعتادوا أن يحبوا الخير للآخرين ، كما يحبونه لأنفسهم .

٤

كان الموعد الذى اتفق الشيخ سافيو والسيدة ديانا ، على أن يعقدا فيه خطوبة أنطونيو ولونا ، هو عندما يغمر النوّار أشجار اللوز ، وتكون بشائر الربيع قد أطلّت على الأرض ، وشرعت يده الصناع تنسج للأرض رداء عريضاً ، ذا ألوان بهيجة زاهية ، وتتوّج رؤوس أشجار اللوز والتفاح والكمثرى بتيجان النوار الأبيض والزهرى ، وتنشر على أذرع هذه الأشجار المبسوطة أوراقاً خضراء طرية .

وجاء الموعد ، فمضى فتيان مانيا إلى القرى المجاورة ، يدعون أهلها إلى حفلة الخطوبة ، التى ستكون فرحة للقرية كلها ، لأن الشيخ الذى فجعته الأيام بثلاثة من أبنائه فى السابق ، ولم تترك له سوى ابنه أنطونيو ، أراد أن يقيم لهذا الابن الوحيد الحبيب حفلتين كبيرتين ، يتجدد فيهما فرحه ، ويتجدد شباب روحه : أحدهما للخطوبة ، والثانية بعدها بأشهر قليلة فى موسم الحصاد ، وهى حفلة الزواج . وأفراح الشيخ الزعيم وابنه أنطونيو ، هى أفراح القرية كلها ، تستعد لها ، وتهيىء جميع دواعى السرور . ومن أهم هذه الدواعى أن يشترك معهم جيرانهم فى أفراحهم .

وتدفقت الخمور فى بيت الشيخ سافيو ، من عصير كروم

القرية ، ومن صنع أيدى أبنائها . فشرب المانيون وضيوفهم من أبناء جونو والقرى الأخرى . وغنّى الشبان والشابات ، ورقصوا ، وصدحت آلات الطرب ، حتّى دارت نشوة الخمر ونشوة الفرح فى الرؤوس والنفوس .

وحمل الخطيبان باقتين من أغصان اللوز ذات النوار الجميل المتفتح ، ومضيا فى مقدمة الجمع الغفير إلى المعبد ، حيث سجدا ، ووضعا إحدى الباقتين على قدمى ڤينوس ، والثانية ، على قدمى الإلهة ڤستا ، حامية العائلات ، واشترك الأب المقدس والعروسان فى صلاة الشكر ، وردد الجميع صلاتهما ، ثم عادت الأغانى والهتافات إلى بيت الشيخ ساڤيو . وعقدت الصبايا أكاليل النوار على رأس العروس ، ونثرت أزاهير الربيع الصغيرة على قدميها . وعادت الخمور تتدفق من جديد ، الثمار المجففة ، من خيرات العام الماضى ، تملأ الموائد . واشترك الشبان والشابات فى الغناء والرقص .

وبينما وقف الخطيبان ليشتركا فى الرقص ، مال الشيخ ساڤيو على أذن السيدة ديانا ، والدة العروس ، يقول لها :

— الآن يطلع الربيع فى قلبى ويتجدد شبابى .

فتجيبه المرأة : وأنا أشعر بأن حياتى تمرع كأغصان اللوز المورقة !

— لن يعرف الربيع فراشتين أسعد منهما ، ترفرفان على حقول مانيا .

ــ ولا غزالين يتطاردان فى مروجها ورباها .

ثم رفع الشيخ عينيه ويديه إلى السماء وقال : الشكر للآلهة العظيمة ! إنها لا تبخل علينا بالخير والسعادة .

ونهض الشيخ والمرأة ، فطبع كل منهما قبلتين حارتين على خدى الخطيبين ، وشفاههما تتمتم بدعوات السعادة والبركة لهما

* * *

وبعد أن انتهت الحفلة ، وتفرّق المحتفلون ، رجع أبناء القرى المجاورة إلى قراهم ، ولا حديث لهم إلا ما رأوه فى القرية من الفرح والسعادة ، ومن الخير الغامر الذى يعيش فيه المانيون ، وينثرون منه على مَن حولهم .

وفى طريق جونو كانت تنطلق أحاديث فيها غير قليل من الحسد ، يشترك فيها الشيوخ والشبان .

قال أحد الشبان :

ــ إنهم سعداء ، هؤلاء المانيون الذين تمتلىء موائدهم بمختلف أصناف الثمار المجففة والطازجة ، وأرضهم تدرّ لهم الخير بدون حساب .

فأجابه شاب آخر : وتتدفق الخمور على موائدهم كالأنهر الجارية ، لأن كرومهم تسخو عليهم بالعناقيد الشهية العصير .

وأجاب شاب ثالث : ونحن فى جونو نجوع فلا نجد ثمرة واحدة أو سنبلة نتبلغ بها !

وقال آخر : ونظمأ إلى الماء الصافى فلا نكاد نقع عليه ، أما هؤلاء فيرتوون من الخمور الشهية ، جديدة ومعتقة !

وارتفع صوت أحد الشيوخ يقول : لو أنصفت الآلهة لجعلت لنا نصيباً من هذا الخير المتدفق على مانيا !

فأجابه شيخ آخر : إن الآلهة معهم . مساكين نحن ! نعيش على فضلات السعداء !

ثم ارتفع صوت أحد الشبان يقول : الذى يحيرنى ويدهشنى فيهم هو هذا التعاون الغريب بينهم . لقد كان الفرح للقرية كلها ، وليس لأنطونيو ولونا ووالديهما فقط !

فأجابه آخر : حقاً لقد كان كل شىء يُشعرنا بأننا كنا ضيوفاً على القرية ، وبأن الفرح كان لكل بيت ، ولكل شخص فى مانيا .

وقال أحد الشيوخ : لقد رأيت الشيخ سافيو ، برغم السبعين من سنيه ، يبدو فى مرح الشباب وحيويته . وعلى الرغم من أنه قد فقد زوجته منذ أعوام ، فإن كل شىء فى بيته وفى حياته كان يبدو على أحسن ما يرام !

فأجابه شيخ آخر : إن القرية كلها تخدمه بسرور ورغبة ، فكأنهم جميعاً أبناؤه : النساء منهم والرجال .

وقال ثالث : بل قل كأنهم جميعاً خدمه أو عبيده ! إنهم لا يعصون له أمراً ، ولا يخيبون له رجاء ، ولا يفوّتون فرصة

أو وسيلة لإدخال السعادة إلى نفسه !

ولكن صوتاً مرتجفاً بضعف الشيخوخة قال :

– ليتكم تتمنون أن يصيبكم مثل نشاطهم وتعاونهم ! إن أرضهم تعطيهم بعض ما يمنحونها من حبّ ، وتكافئ تعاونهم وإخلاصهم وسلامهم بخيراتها .

فتطلعت العيون كلها إلى الشيخ المتكلم بغضب واحتقار ... أيهينهم جميعاً ، ويدافع عن المانيين ؟ !

ألا يكفيهم احتقار أرضهم لهم ، وشحّها عليهم ، حتى يقرّعهم شيخ منهم ؟

ولكنه لم يبال بنظراتهم ، واستغرق فى سعال طويل ، وتركهم يتهامسون ويتمتمون بكلام لا يسمعه ، ولا كان يهمه أن يسمعه .

* * *

وبينما كانت طريق جونو تستمع إلى أحاديث الحسد والغضب من أفواه العائدين إليها ، كان أنطونيو ولونا يجاسان بين والديهما ، وكان الشيخ ساڤيو يقول : ما أطيب قلوب جيراننا ! لقد كملت أفراحنا بحضورهم .

فأجاب أنطونيو : حقاً لقد كانت حفلة أنيسة جداً بحضورهم .

وقالت لونا : لقد كبرت أسرتنا بهم ، فلم تكن مقصورة على أبناء قريتنا وحدهم ، بل ضمت معهم إخواناً آخرين .

وقال الشيخ : مساكين ! إن أكثر من أتألم لهم من بينهم هم

الجونيون ، أولئك الذين تأبى أيديهم معانقة الفأس ، وتأنف نفوسهم من محبة التراب السخيّ .

فقال أنطونيو : إن أرضهم لا تقل جودة وخصباً عن أرضنا ، لو كانوا يفلحونها كما نفلح نحن أرضنا .

— نعم يا ولدى ، فليتهم يقتدون بنا !

— بودى يا والدى أن أعاود الجهود التى طالما قمت أنت بها ، ولم يقدّر لها النجاح من قبل ، فأطوف فى القرى القريبة كلها ، لأؤلف من بين شبانها جماعات ترتبط معنا بحب الأرض ونطلق عليها اسم « أصدقاء الأرض » ، ونجعل من هذه الجماعة — مهما تكن صغيرة — نواة تعمل على غرارنا ، لسعادة شعبنا .

— أتمنى أن توفقك الآلهة يا بنى فى مسعاك .

— إن ازدهار الأرض ، يا والدى ، هو الوسيلة الأولى لحب الوطن ، ولحب الحياة والناس. والمواطن الصالح هو الذى يعرف كيف يُصلح أرض وطنه ، ويجعل منها جنات تفيض حياة وخيراً.

— لو عمل كل إنسان بهذا المبدأ ، يا ولدى ، لما بقى فى الأرض محتاج ، ولا بقى فى الناس قلبٌ يضمر شراً ولا حقداً . فالسعيد بنفسه يطلب السعادة لجميع الناس ، والمحتاج شقى بنفسه ، لذلك لا بد له من أن يضمر الشقاء للآخرين .

— إذن سأبدأ مساعىّ حالا ، يا أبت ، لأؤلف من أبناء جيراننا جماعة « أصدقاء الأرض » ، وعسى أن أنجح فى هذا

المسعى ، فأخلق لدى جيراننا دافعاً قويًّا يجذبهم إلى ترابهم ، حين أحول ذلك التراب إلى ثمار وخمور وربيع أخضر .

– ستفعل ذلك يا ولدى متى عُدت من رحلتك القصيرة ؛ فبهت أنطونيو ، وسأل والده بلهفة : رحلة ؟ ! وإلى أين يا أبى ؟

فضحك الشيخ وقال : لقد اتفقنا : أنا والسيدة ديانا ، على أن نسمح لك باصطحاب خطيبتك لزيارة روما لمدة أسبوعين ؛ إنكما فى حاجة إلى رحلة كهذه ، تستريحان فيها من عناء العمل المتواصل وتتمتعان فيها بما فى عاصمة الإمبراطورية من وسائل التسلية والمتعة ، وتبدلان جو القرية الذى لم تفارقاه إلى الآن .

فهلل أنطونيو فرحاً ، وقفز من مكانه ليطوق عنق أبيه بذراعيه ، وهو يقول : أنت كريم جداً يا أبى !

ثم أسرع بعد ذلك نحو والدة فتاته يقبل يدها ويقول : وأنت أيضاً يا عمتى ؛ إنك كريمة جدًّا كوالدى . شكراً لكما .

ولم تكن لونا أقل من أنطونيو فرحاً بهذه الفرصة ، فأسرعت تطوق عنق أمها بذراعيها ، وتمطرها بالقبل الحارة . ثم تنهال على يد الشيخ تلثمها شاكرة .

ثم قالت له : ولكنك يا جدى العزيز بأشد الحاجة إلينا لخدمتك ومساعدتك . . .

فقاطعها الشيخ قائلا : لا تفكرى بهذا الآن ، فسأكون بخير إلى أن تعودا من رحلتكما . فامضيا لتهيئة لوازم السفر .

٥

كان أنطونيو ولونا يشعران ، لشدة فرحهما ، بأن الإمبراطورية كلها تكاد لا تسعهما ، وبأنها جميعها ترقص لفرحهما بهذه الفرصة الطيبة ، التى أتاحها والداهما الطيبان . فمضيا يحزمان أمتعتهما لهذه الرحلة التى ستستغرق أسبوعين يقضيانهما فى عاصمة الإمبراطورية ، بل عاصمة الدنيا فى ذلك الحين . ولم يكن قد قُدّر لهما ، إلى ذلك الوقت ، أن يبتعدا عن محيط القرية ، وعن حياة القرويين ، فكل تنقلاتهما لم تتجاوز قط محيط جونو والقرى القليلة الأخرى القريبة من مانيا ؛ وإن شوقهما إلى رؤية المدينة لعظيم جداً .

لقد كانا يسمعان كثيراً جداً من الحكايات الجميلة الغريبة عن المدينة ، من أبناء القرية الآخرين ، الذين أتيح لهم زيارتها ، وكانا يتشوقان كثيراً إلى رؤية روما لأجل ذلك كله . وها هى ذى الفرصة تتحقق الآن ، وليس ليوم واحد أو يومين ، بل لأسبوعين كاملين ، يريان فى خلالهما كل ما يرغبان فى رؤيته هناك ، فى عاصمة الدنيا ، وسيدة مدن العالم ؛ ويعودان بعد ذلك ليرويا لأهل القرية كل ما رأياه وما سمعاه من حوادث وأمور تخلب الألباب .

وبعد أن ودّعا والديهما خارج القرية ، واختفيا عن الأنظار ، التفت الشيخ ساڤيو إلى والدة اونا ، وقال :

— لقد رغبتُ فى أن أتيح لهما هذه الفرصة ، لكى يكتسبا بها خبرة جديدة ؛ فحياة القرية وحدها قليلة الاختبارات ، قليلة التجارب . ولقد ألفا ههنا حياة السلام والرخاء ، واعتادا رؤية الناس البسطاء الطيبين المتحابين ، الذين يعيشون على التعاون وحب العمل ؛ فيجب أن يعرفا أن هناك دنيا يعيش فيها الناس على غير هذا كله .

فأجابت السيدة : وستكون هذه الرحلة لهما فرصة لكسب مشاعر إنسانية جديدة للمستقبل أيضاً . ستعلمهما الشعور مع الآخرين المتألمين كما ستعلمهما كيف ينظران إلى الأمور ، و يقارنان بينها بعقل وحكمة .

— حقاً ، كل هذا قصدته من إتاحة هذه الرحلة لهما . وسترين كيف سيعودان بمشاعر واختبارات ونظرات جديدة ، كثيرة النضوج والوعى . ولكن هذا كله ضرورى لهما ، فما يكفيهما أن يعرفا وجوه الخير وحدها ، بل يجب أن يدركا وجوه الشر كذلك ، ليتخذا لنفسيهما مناعة ضدّ الشرّ ، ويعرفا كيف يجنبان قريتهما ، من بعدنا ، الوقوع فيها . فنحن لن نعيش لهما إلى الأبد . وأنا أشعر بأن أيامى على الأرض أصبحت قصيرة .

— وقتك الآلهة أيها السيد النبيل . . . إنه لمما يصعب علىّ احتماله ، أن أومن بهذه الحقيقة الأليمة ، وهو أنك لن تستطيع

أن تظلّ تقود خطاهما وخطى القرية كلها بحكمة فى طريق السعادة . فلابد لهما من الاختبار والإدراك بنفسيهما . إنك لفى منتهى الحكمة وطيبة القلب يا سيدى .

— إن روما تعج بكل ما يدهش العقل من آيات الفنون والعمران ، ومظاهر الجلال والفخامة ؛ ولكن فيها إلى جانب ذلك كلّ ما يقذى العيون ويرمض القلوب ، من دناءات وموبقات وجرائم ؛ واطلاعهما على كل ذلك عن كثب ، سيكون عظيم الفائدة لهما ، وسنرى بعد عودتهما كيف كان استقبالهما لكل هذه المتناقضات الجديدة .

* * *

أما أنطونيو ولونا فقد انطلقا إلى أحدى القرى القريبة ، ومن هناك استأجرا عربة يجرها جوادان قويان ، مضت بهما تنهب الطريق إلى روما . وكانت المسافة تستغرق نحو يومين إلى هناك ، فكان لابد لهما من أن يعرجا على مدينة أخرى خلال الرحلة ، ليقضيا فيها الليل . وكانت هذه أول مرة يبيتان فيها خارج قريتهما ، بعيدين عن ذويهما . ولذلك كانت مشاعرهما كلها جديدة لهذه التجربة . إلا أنهما كانا سعيدين جداً بهذه الرحلة ، وما ستتيحه لهما من مشاعر واختبارات لم يكن لهما بها عهد . وقد أحسا بأنهما يبدآن بهذه الرحلة حياة النضوج والاستقلال التى تقتضيها سنهما ، وما هما

مقبلان عليه من تأليف أسرة جديدة بعد أشهر قليلة .

كان الطقس جميلا فى أثناء رحلتهما ، وإن يكن الشتاء لم يلفظ أنفاسه بعد ، فقد كان الوقت إذ ذاك فى الشهر الأخير من فصل الشتاء ، وهو الوقت الذى يختلط فيه الربيع وهواؤه المنعش ، بالشتاء وبرده الشديد .

وكان هواء الربيع يرفرف بأجنحة ناعمة خفية على وجهيهما والعربة منطلقة بهما فى العاصمة العظيمة . وكانت عيونهما طوال الطريق تتأمل كل ما يمر أمامهما من سهول وتلال ، ومن أناس وحيوانات ؛ فينشرح صدراهما لكل منظر جميل ، ولكل رابية شجراء ، أو حقل تتمايل فيه عروق الحنطة الصغيرة الخضر ، أو مرج تتراقص فيه ذؤابات الحشائش القصيرة ؛ كما كانا ينقبضان كلما مرت بهما أرض جافة التراب ، لم يشقها محراث ، ولا ضحكت عليها عشبة خضراء أو زهرة أقحوان ، أو كلما مر بهما قروى حافى القدمين ، أو طفل قذر الوجه واليدين ، أو طفلة ممزقة الثياب ، أو خروف هزيل أو كلب بادى العظام من الجوع .

وأخيراً ها هى ذى روما . . .

قباب عالية هنا وهناك ، ترتفع سامقة فى الفضاء ؛ وقصور عظيمة لم يريا مثلها قط ، ولكن طالما صورت لهما أخيلتهما مثلها ، لدى سماعهما ما كان يرويه لهما القرويون

العائدون من روما ؛ وحدائق لا تنقطع فيها الخضرة والزهر يوماً واحداً طوال العام ؛ ومياه متدفقة ، وتماثيل كبيرة تفتن الألباب حينما تقع وتتكسر عليها أشعة الشمس الربيعية الدافئة ، فى الشوارع ، وعلى مداخل القصور الفخمه ، فى المعابد والساحات العامة ؛ وحركة بشرية دائبة متزاحمة لا تنقطع ؛ وعربات تجرها خيول قوية عديدة ، تروح وتجىء فى الشوارع الواسعة العريضة تحمل النبلاء والعظماء ؛ وعربات أخرى يجرها . . .

ـ أواه ! هذا منظر فظيع ! . . . انظر يا أنطونيو ! عربة يجرها آدميون شبه عراة ! . . . يا للمساكين !

وكان أنطونيو ينظر إلى حيث تلفته لونا ، فيقشعر جسمه لبشاعة المنظر وقسوته ، وكأنما شعر بأنه كان بين أولئك المناكيد يتألم معهم ؛ وإذا به يهتف بألم :

ـ آخ ! . . . ولم هذه السياط تنزل على ظهورهم ؟ عفوك أيتها الآلهة ! آخ ! . . .

والتصقت لونا بصدر أنطونيو مذعورة ، وهى تلتفت نحو العبيد المجدين فى سيرهم ، وهم يجرون عربة ضخمة ، تتربع فى قلبها سيدة أنيقة شديدة الترف ، بينما تنزل السياط على جلود حيواناتها الآدمية بلا رحمة أو شفقة .

ـ هلم بنا نعود إلى القرية يا أنطونيو ! هذا فظيع ، لا أستطيع رؤيته!

ولكن أنطونيو أمسك بكتفيها بحنان ، وظلت عيناه عالقتين بغضب شديد بأصحاب تلك السياط المتلوية على ظهور المساكين وكان يحس فى صدره بثورة عظيمة ، ويود لو يقفز من العربة وينهال بجميع تلك السياط على جلود أصحابها ، لينقذ أولئك التعساء من ظلمهم وأذاهم .

ولكن سائق العربة أحس بما يجرى خلفه . فالتفت إلى أنطونيو ، وقال له هامساً :

– لا تبد حركة يا سيدى ، وإلا جنيت على نفسك وعلى السيدة التى معك .

– ومن هم هؤلاء ؟ وما ذنبهم ؟

– إنهم عبيد يجرون عربة سيدة من نبيلات روما . وهكذا يعامل العبيد فى هذه المدينة .

– وماذا تعنى بالعبيد ؟

– إنهم من الذين أسرهم جنود روما فى الحروب ، وهم يسخرونهم فى كل أعمالهم القاسية الشاقة ، ويتخذونهم بدلا من الحيوانات لجر عربات نسائهم ، أو لحراسة بيوتهم ومزارعهم والعمل فى حقولهم وأراضيهم بدون رحمة . والسادة ههنا يشترون منهم أعداداً كبيرة ، ويسومونهم كل مذلة وإرهاق ، ويتركونهم ينامون كالأغنام فى حظائر غير مسقوفة ، ويجلدونهم بالسياط بدون سبب ، كما تريان . وفى حفلات المصارعة التى يقيمونها

كثيراً للتسلية ، يختارون الأشداء من بينهم ليتلذذوا برؤيتهم يتفانون بوحشية مؤلمة ، أو يقدمونهم فريسة للأسود الجائعة فى حفلات تسليتهم الجنونية .

فنظر أنطونيو ولونا ، كل منهما فى عينى الآخر ، وكأنما يتساءل : « أمن الممكن أن تنحدر الإنسانية إلى هذا المستوى من الهمجية والتوحش ؟ »

أما السائق فمضى يقول ، وبصوته المنخفض : سترياں الكثير من هذه الفظائع . هل ستطول إقامتكما فى روما ؟

فأجاب أنطونيو : أسبوعين ؛ ولكن قل لى : هل يقيمون مثل هذه الحفلات كثيراً ههنا ؟

— نعم يا سيدى . سترياں الكثير جداً ، وستتألمان كثيراً ما دمتما رقيقى القلب إلى هذا الحد . ولكننى أنصح لكما بإخلاص أن لا تحاولا التعرض لأحد ، أو إبداء مشاعركما نحو مظلوم ، لأننى أخشى عليكما سوء العاقبة ، فالناس ههنا لا يرحمون ، ولا يفهمون معنى الشعور الإنسانى ؛ يهمهم أن يتلذذوا على حساب المساكين الضعفاء .

— شكراً على النصيحة .

وعادت لونا تقول ، وهى لا تزال ملتصقة بصدر أنطونيو ، وعيناها تنظران إليه بضراعة وخوف :

— عُد بنا يا أنطونيو إلى القرية ، لا أطيق أن أرى

هذا ، فكيف إذا كان هناك ما هو أقسى وأشد إيلاماً للنفس ، كالذى تحدث عنه السائق ؟ عُد بنا ، أرجوك !

فهز أنطونيو رأسه ، وما يزال فى عينيه صرامة وتحديق بعيد عنيف : كلا ، لن نعود الآ ن يا اونا . يجب أن نرى كل شيء فقد بدأت أشعر بأن فى الدنيا شقاء لم نعرفه نحن. يجب أن نبقى ونرى كل شيء .

ــ ولكن هذا فظيع يا حبيبى ، وأخشى أن لا تمسك أعصابك أمام أحد المشاهد ، فتسوء العاقبة ، كما يقول السائق .

فقال السائق قبل أن يتمكن أنطونيو من الإجابة :

ــ الذى سيقع فى هذه الحالة أن يكون جزاء السيد لدى الرومانيين ، كأحد أولئك العبيد ؛ أن يأسروه ، أو يلقوه إلى ساحة الوحوش ، أو إلى ساحة المصارعة . وتصبحين أنت من حظايا أحد السادة الرومانيين بعد ذلك .

فصاحت لونا مذعورة : أواه ! هذا مستحيل ؛ أنطونيو . . .

ولكن أنطونيو أجابها مطمئناً :

ــ كلا . سأحتفظ بأعصابى هادئة . ثقى من هذا .ولكن يجب أن أرى بعينى كلّ ما يمكننى رؤيته من شقاء المظلومين والمعذبين . لقد مرّت حياتى الماضية كلها بهدوء وسعادة ، كالحلم الجميل ، وكنت أظن الدنيا كلها تعيش مثلنا. أما الآ ن فقد بدأت أعرف غير هذا . يجب أن نبقى معاً .

ووصلت العربة إلى فندق ينزل فيه كثير من القرويين الوافدين على المدينة الكبيرة . فالتفت السائق إلى أنطونيو ، وهمس فى أذنه قائلا :

ـــ ما دمت ترغب فى رؤية الشقاء الإنسانى على حقيقته ، فامض لمشاهدة حفلات الصراع التى يتفانى فيها الرجال ويتعذبون لتبتهج برؤية عذابهم نفوس عظماء روما ونبلائها ؛ واشهد مصارعة هؤلاء الأشقياء للوحوش المفترسة ؛ واسأل عن أحياء العمال والفقراء ، وتجول بينها لترى أى نوع من الحياة يحيون . فى كل هذا سترى العجائب والأهوال .

ـــ شكراً . سأفعل كل ذلك .

* * *

ونزل الحطيبان فى الفندق الصغير ، بين جماعة من القرويين الذين يبدو على بعضهم أنهم مثلهما لم يزوروا المدينة قبل هذه المرة . وأمضيا بقية ذلك النهار فى الاستراحة من عناء الرحلة الطويلة الشاقة .

كان كلّ ما مرّ بهما فى المدينة مثيراً غريباً : الأزقة الضيقة التى اجتازاها قبل الوصول إلى الفندق ، كانت تبعث الكرب فى النفس ، فالشمس لا تمنحها من نورها ما تمنحه لأهل قريتهما ؛ والهواء لا يعطيها من طلاقته ما يكفى ليمنح النشاط والعافية للناس ، كما فى قريتهما . أما القصور الفخمة التى

تتربع فى قلب المدينة وفى أطرافها ، فهى وحدها التى تستأثر بأكبر نصيب من نور الشمس وطلاقة الهواء ، ويستأثر أهلها بالعافية وبسائر متع الحياة .

وكان أنطونيو ولونا قد أحضرا معهما طعاماً ، وفواكه ولحوماً مجففة ، وقليلا من الشراب زاداً للطريق ؛ وقد بقى لديهما بعض هذا إلى الآن . فنهضت لونا وأخرجت الطعام والشراب من بين أمتعتهما ، وجلسا يأكلان ويتحدثان .

قالت لونا : كنت أحسب أن كل ما فى روما سيكون باعثاً على البهجة ، وسيضاعف من سعادتنا ، فنقضى فرصة من أمتع ما فى العمر .

ــ وقد وجدت الآن العكس ؛ أليس كذلك ؟

ــ حقاً ، هذا ما أردت أن أقوله .

ــ نحن لا نزال فى اليوم الأول من اختبارنا لحياة روما يا حبيبتى ؛ وأهلها يعيشون فيها منذ زمن طويل ؛ وهم بشر مثلنا ، ويبدو أنهم يستمرئون حياتهم فيها برغم ما يسوؤنا نحن منها ، فلا بد أن يكون فيها إلى جانب المسيء أشياء أخرى حسنة سارة .

ــ أنا لا أنكر أن روما هى أم الإمبراطورية وعاصمتها ، ومصدر عزها وعظمتها . ولكننى كنت أود أن تحترم كرامة الآخرين ، كما يحترم سادتها كرامة نفوسهم .

ـــ لقد ساءك ما رأيت من معاملة العبيد المساكين . ولكن يبدو أن هذه سنة الأقوياء كلهم ، وليست سنة روما وأهلها وحدهم .

ـــ ولكنها سنة مجرمة ، لقد أصبحت أعتقد الآن أن كل شر يقع فى الأرض ، لا يكون سببه إلا أطماع السادة الأقوياء ولذاتهم . ولأجل إشباع هذه الأطماع واللذات الحمقاء تقع الحروب ، ويشقى البشر ، وتضيع حرياتهم . كل هذا يقع ضرره على الملايين ، لتطيب به نفوس جماعات قليلة فقط !

ـــ حقاً إنها لسنة حيوانية وحشية . إننى لا أخالفك فى هذه النظرة ، بل إننى لأشمئز منها وتثور نفسى ثورة شديدة . ولقد كان منظر العبيد ، وهم يجرون العربة ، والسياط تلهب ظهورهم بلا ذنب ، أبشع منظر رأته عيناى . وفى يقينى أن مثل هذه المعاملة يجب أن يعدم أصحابها ، لأن الإنسانية تبرأ منهم .

ـــ نحن لا نرضى لأنفسنا بمثل هذا الهوان والحقارة .

ـــ الشكر للآلهة ! إننا بعيدون عن مثل هذا النصيب التعس . ولكن من يدرى ؟ ألم يقل السائق إن هؤلاء العبيد أغلبهم من أسرى الحروب التى انتصر فيها جنودنا على أعدائهم ؟ فلو أننى كنت اشتركت فى حرب ، ووقعت أسيراً فى يد الأعداء أفما كان مصيرى لديهم مثل مصير هؤلاء التعساء ههنا ؟

فذعرت لونا كما لو كان الذى يقوله أنطونيو قد وقع فعلا ،

وهتفت : لا ! لا يمكن ذلك !

– بل هذا ما كان يمكن أن يحدث . ولذلك أستطيع أن أفهم الآن من معنى السعادة ، ومن قيمة الحرية ، أكثر مما كنت أفهم من قبل أن أزور روما . ومن يدرى ماذا سأكسب من تجارب فى الأيام المقبلة ؟

– حقاً إنه لاختبار شديدة القسوة والمرارة !

– ولكننى أتقبله راضياً ، لأنه سيعلمنى دائماً كيف أكون إنسانا حقيقياً . وكيف أدافع عن كرامة كل إنسان ، وعن حقه فى الحياة السعيدة .

وفيما كان أنطونيو ولونا ماضيين فى حديثهما ، كان هناك رجل قريب منهما ، وقد سمع قسما من حديثهما . فتقدم منهما ، وحياهما بانحناءة وابتسامة ، وقال :

– يبدو لى أنكما غريبان عن روما ؟ !

فالتفتا معاً نحوه ، وأجاب أنطونيو :

– أجل ! وهذه أول مرة نزورها فيها .

– إنها مدينة عظيمة ، أليس كذلك ؟

– بلى ، إنها تختلف كثيراً عن القرية التى جئنا منها ، وعن جميع القرى التى رأيناها . إنها تختلف بعماراتها وطرقها وأهلها . ويبدو لى أنها تختلف كذلك فى كل شىء .

– لا شك فى ذلك . إن البساطة والهدوء ومعاشرة الشمس

والهواء التى يعرفها رفاق الحقل ، لا يمكن أن يوجد منها شىء فى روما ؛ فهى مدينة يعيش فيها الإمبراطور والحكومة والجيش والنبلاء ؟ وهؤلاء جميعاً لهم أعمال وأهداف. ومتع لا يمكن أن تقرّب بشىء من أهداف القرية وأعمالها وتسلياتها الهنيئة البريئة وهذه القصور التى تريانها . . .

وخفض المتحدث صوته وهو يتابع قائلا : إنها ملأى بالدسائس والمؤامرات الكبيرة ، وبالمخازى أيضاً . . .

فسأله أنطونيو بدهشة : أية دسائس ومؤامرات ومخاز تعنى ؟ !

ــ إن قادة روما لا ينفكون يدبرون المؤامرات بعضهم لبعض ، لهدم سلطة قائد أو عظيم ، وتسليط آخر مكانه ، والنبلاء لاهمّ لهم إلا تدبير الدسائس والمؤامرات فى سبيل النفوذ والثراء والجاه والنساء . وما أكثر الجرائم الأخلاقية التى تغرق فيها قصور روما بلا انقطاع .

فالتفت أنطونيو إلى فتاته ، كما التفتت هى إليه ، وفى عيونهما استغراب وتساؤل حائر : ماذا ؟ أفى كل لحظة خبر جديد عن أحداث المدينة العظمى وأهلها ؟ . . .

ثم قال أنطونيو : أشياء طريفة ومثيرة ، يا لونا ؛ أليس كذلك؟

ولكن لونا لم تجب بشىء . لقد انطلق خيالها يدخل قصور روما ، ويتأمل خفاياها وأسرارها . . . إنها إذن مخازن أسرار ، تلك البنايات الضخمة الجميلة التى تبدى العظمة والذوق والثراء؟!

ونظر أنطونيو إلى محدثه ، وسأل : هل السيد من روما ؟

ــ كلا ؛ إنني قروى مثلكما ، ولكنني أكثر التردد على روما ، وقد عرفتُ من شؤونها وأمور أهلها الشيء الكثير . واسمى «فلاڤيوس» .

ــ تشرفنا أيها السيد .

قال أنطونيو ذلك ، ثم أشار إلى فتاته وقال يقدمها ثم يقدم نفسه إلى فلاڤيوس :

ــ لونا ، خطيبتى . واسمى أنطونيو ، من قرية مانيا التى تبعد عن روما مسيرة نحو يومين إلى الشمال .

ــ يسرنى كثيراً أن أتشرف بمعرفتكما . هل تأذنان لى بالجلوس معكما؟

ــ بكل سرور . تفضل .

ثم سأله أنطونيو قائلا : هل سيقيم السيد ههنا طويلا ؟

ــ أسبوعاً واحداً ، لقضاء حاجات بسيطة لابد منها ، ثم أعود إلى أهلى .

ــ هل يستطيع السيد أن يتيح لنا شرف مرافقته فى أوقات فراغه ؟ إننا سنبقى هنا أياماً أخرى ، أكثر من أسبوع .

ــ بكل سرور أنا فى خدمتكما

ــ شكراً يا سيدى .

ــ يمكنك أن تدعونى باسمى . طابت ليلتكما .

ــ طابت ليلتك يا فلاڤيوس .

وحينما غادرهما الرجل ، التفت أنطونيو إلى اونا ، وقال :

ــ يبدو أن زيارتنا لروما لن تذهب عبثاً ما دمنا قد وقعنا على رفيق طيب يعرف المدينة جيداً .

٦

فى صبيحة اليوم التالى خرج أنطونيو ولونا من الفندق وحدهما ، يتجولان فى شوارع المدينة العظيمة ، ويتفرجان على مظاهر الحياة والعظمة ومجالى الفنون الجميلة فيها ، فبهرتهما هذه العظمة المتجلية فى كل شيء ، وهذه الحركة الدائبة الكثيرة فى الشوارع .

أناس عديدون كالنمل يذهبون ويجيئون . . . عمال ، جنود ، رجال ، نساء ؛ بعضهم يسيرون على أرجلهم ، وبعضهم يركبون العربات . وحوافر الجياد المسرعة تضرب الشوارع ضرباً عنيفاً ، يُسمع من بعيد .

وفى مدخل القصور وحدائقها نساء ورجال ، عبيد يروحون ويجيئون صامتين ، وفى صمتهم عُبوس وكآبة ومذلة ، كان يتفطر لها قلبا الفتى وخطيبته .

وعرّجا على مكان قريب يتناولان طعاماً خفيفاً ، ومن هناك يرقبان المارة فى الشارع ، ويتأملان حركة المدينة الكبيرة

قالت لونا : شتان ما بين هدوء مانيا فى مثل هذا الوقت من الصباح ، وهذا الضجيج الكبير ههنا .

— إن النفس الغريبة لتشعر بالحنين إلى ذلك الجوّ الهادئ .

لقد قضيت الليلة الماضية هناك فى أحلامى . وجدتنى طائراً غريباً لا يطيق هذا القفص الكبير ، فيطلق جناحيه فى الفضاء، ويجتاز الأبعاد والحواجز ليعود إلى عشه الصغير ، بين أوراق الأشجار الخضراء .

— صحيح ؟ كنت أود أن أخبرك بأننى قضيتُ الليلة على هذه الحال أيضاً ! لقد عادت بى أحلامى إلى حقولنا ، وهناك رأيتنى أتناول من شجرة لوز كنا نجلس تحتها ، أنت وأنا ، حفنة من الثمار الطرية ، فقدمت لك بعضها ، وجعلنا نتسلى بأكلها .

— إن روما مدينة عظيمة ، ولكنها لم تخلق للطيور الحرة . إنها ليست لنا ، ولكنها للذين يعشقون الفراغ واللهو ، والذين تملأ رؤوسهم أحلام العظمة الجوفاء ، والثروة الطائلة ، بعيدين عن بساطة الروح والضمير وحريتهما . ولكن من المفيد للبسطاء الطيبين أمثالنا أن يعيشوا فيها مدة ما ، ليعودوا بعد ذلك إلى القرية أنقى جوهراً وأصفى نفوساً ، وأقدر على فهم الحياة ، ومعرفة الأمور ، مما كانوا .

وفيما هما يتحدثان بهذا وقف بهما شيخ أعمى ممزق الثياب ، يعتمد على كتف طفلة قذرة الجسم والملابس ، ومدّ إليهما يده يطلب إحساناً ؛ فالتفت كل منهما إلى الآخر ، وفى عيونهما فيض من الألم والإشفاق . ثم مدّ أنطونيو يده إلى الفتاة بالرغيف

الذى كان أمامه وتناول من جيبه قطعة نقود دفعها إلى الشيخ فأخذها هذا وانصرف وهو يدعو للمحسن الكريم دعوات حارة .

فقال أنطونيو يخاطب فتاته :

ــ لقد كان مثل هذا المنظر ، الذى طالما رأينا أمثاله فى جونو وغيرها من القرى ، وفى من كانوا يفدون بكثرة على قريتنا من المتسولين ، هو مبعث الألم الوحيد الذى كنتُ أشعر به من مظاهر الشقاء البشرى . وها هوذا المنظر نفسه يتكرر لنا فى المدينة العظيمة . فأى فرق بين روما ــ عاصمة الدنيا ــ وجونو ــ القرية الصغيرة الفقيرة ــ مثلا ، ما دام يتساوى فى كليهما بعض الناس بالحاجة والحرمان إلى هذا الحد ؟

فقالت لونا بامتعاض شديد :

ــ من العار أن يعيش محروم بهذا الشكل فى مثل روما ، ذات القصور العظيمة ، والبذخ الذى يذهل العقول ، والملاهى الغارقة فى الترف واللذاذات . ولو كانت حكومة روما حكومة الشعب ، وليست حكومة السادة وحدهم ، لفرضت الضرائب والغرامات الكثيرة على ملاهى السادة ومتعهم الباذخة ، لتأوى بهذه المبالغ المتجمعة أبناء الشعب البؤساء والمحرومين .

فضحك أنطونيو ضحكة ساخرة متألمة معاً ، وقال :

ــ ولكن يبدو لى أن مظاهر الترف فى روما مقصورة على قلة من الناس فقط ، بينما الأكثرية العظمى تتألف من العبيد

والعمال والجياع والمحرومين ، وهؤلاء جميعاً مسخرون لخدمة القلة المترفة وإمتاعها ، وهم يختفون فى ليل روما ، فلا يبقى فيها من مظاهر الحياة إلا المترفون من عشاق اللهو ؛ وفى النهار ينزوون فى أعمالهم أو سجونهم ، أو يتسللون فى الأزقة للاستعطاف ! فلا تظهر لذلك بجلاء إلا مظاهر القوة والثراء والبذخ ، التى تتمثل فى العربات العديدة ، وفى ثياب القواد والجنود الذين تغص بهم الشوارع ، وفى المتاجر العديدة ، والتماثيل المنصوبة فى كل مكان .

— إن الفقراء هم ضحايا الحياة دائماً ؛ والمجتمع الذى لا يأخذ بأيديهم ليمنحهم الحياة والكرامة ، هو مجتمع لا يعرف قيمة نفسه ، ولا يفهم من الكرامة إلا أنها بهيمية حرة ، تعيش على شقاء الآخرين .

— لقد برئنا نحن فى مانيا من هذه النقائص كلها . وسنسعى بعد اليوم لنبرئ غيرنا منها مثلنا ، إن روما لن تكون جديرة بالعظمة وفيها جائع أو محروم أو أسير مظلوم ؛ ولن تكون حرة كريمة وفيها استغلالى كسلان ، يتآمر على سلب الآخرين حقوقهم وثمرات جهودهم ، لينعم هو بها دون جهد أو عرق شريف .

وكانت لونا تنظر إلى الشارع أمامها . فأشارت بيدها وهى تقول لأنطونيو :

ــ انظر يا أنطونيو ؛ هذه امرأة تحمل طفلا هزيلا وتقترب منا . إن البؤس يخط على وجهها ووجه طفلها أعمق آثاره .

فجاءها جواب أنطونيو يقول مشيراً إلى جهة أخرى :

ــ وانظرى هناك ، أولئك الأطفال الذين يلاحقون المارة ، ولا ينفكون يتوسلون إليهم بأحرّ ضراعة !

ــ يبدو أن هذه المناظر وأمثالها لن تنتهى . مساكين ! إن الحياة قاسية جداً عليهم . هيا بنا إلى الفندق ، فإن نفسى تكاد تتمزق من الألم أمام هذه المشاهد العديدة .

فأجابها أنطونيو وهو يربت على كتفها باسما :

ــ يجب أن نهيئ نفسينا لاحتمال كل مشهد مؤلم فى هذه المدينة ، لأنه يبدو لى أننا سنشهد الكثير جداً منها .

* * *

عند الظهر التقى أنطونيو ولونا بفلاڤيوس ، رفيق الأمس ، فى الفندق ، فقال لهما مبتهجاً :

ــ ستشهدان بعد ساعات قليلة مشهداً سيهمكما كثيراً !

فقال أنطونيو : أرجو ألا يكون مشهداً مؤلماً جداً ؟ !

وقالت لونا بما يشبه اللهفة : أى مشهد تراك أعددت لنا هذا النهار ؟ !

فأجاب فلاڤيوس :

ــ ستشهدان فى ساحة المصارعة كيف يتصارع الإنسان

والوحش . . . الإنسان الأعزل الذليل ، والوحش الجائع الضارى

فانقبضت نفس لونا ، واكفهرّ وجهها ، وجعلت تنظر إلى أنطونيو بعينين فيهما رجاء وخوف . ولكنّ أنطونيو ربت على كتفها وقال : لا تجزعى ! فقد قلتُ لك هذا الصباح إن علينا أن نهيئ نفسينا لاحتمال كل مشهد مؤلم ، مهما يبلغ من شدة القسوة والإيلام .

ثم التفت إلى فلاڤيوس وقال : سيسرنا كثيراً أن نرافقك إلى الساحة . هل سيكون هناك كثيرون ؟

— جميع سادة روما وأشرافها . وسيكون الإمبراطور والإمبراطورة هناك فى المقدمة .

ثم تابع كلامه هامساً :

وسيكون إلى جانب الإمبراطورة عشيقها القائد الشاب أيضاً . . .

— عشيقها ؟ !

قال أنطونيو ذلك مستغرباً . فأسرع الرجل يقول مستمراً فى الهمس : روما جميعها تتحدث عن هذا القائد الجميل ، الذى يلازم الإمبراطورة كظلها . إن زوجها رجل شديد الضعف أمامها ، حتى إنها لتمضى فى استهتارها مع عشيقها بدون مبالاة به . وهذا العشيق هو صاحب الكلمة النافذة فى روما .

— إحدى فضائح القصور فى روما العظيمة . . . التى

حدثتنا عن انتشارها أمس ! . . .

ـ نعم ؛ هي واحدة لها مثيلاتها فى كثير من قصور روما؛ القصور الغارقة فى الترف والدعارة .

ـ تريد أن تقول : الترف الذى لا يؤدى إلى غير الدعارة ؟!

ـ هو كذلك تماماً .

* * *

وبعد ساعة كان الثلاثة يغادرون الفندق إلى الملعب الكبير .

وكان الملعب يعجّ بالألوف من الرجال والنساء ؛ فلم يكد الثلاثة يجدون مكاناً بين هذه الجماهير الغفيرة ، إلا بعد جهد كبير جداً .

وتفرس أنطونيو ولونا فىّ هذه الجماهير ، فإذا هى صنفان من الناس : سادة تبدو عليهم مظاهر العظمة ، يتربعون على المدرجات الواسعة المريحة ؛ وجماهير تنتشر على جوانب الساحة الكبيرة ، تبدو عليها الكآبة والمهانة .

أما الأولون فقد جاءوا يتلذذون برؤية الوحوش الضارية وهى تنطلق من أقفاصها هائجة ، وتنقض على العشرات من المساكين الذين يقفون فى حلقة مسوّرة فى وسط الملعب ، والذين شاءت لهم إرادة الأقوياء أن يكونوا طعاماً مريئاً لها .

وأما الآخرون فهم أولئك المساكين الذين ينتظر كل منهم أن تمتد إليه يد السادة بالظلم ، وقد لا يبعد أن يصبحوا فى يوم من الأيام من طعام هذه الوحوش ، حينما تقضى بذلك

شريعة الغاب التي يحكم بها سادة الرومان . وقد جاءوا يشهدون – كما يجيئون فى كل مرة – كيف تتحجر النفوس والضمائر أمام اللذات المجرمة ، وكيف تنتحر الإنسانية بأيدى أبنائها .

عوامل نفسية متناقضة ، تلك التي كان أنطونيو يتصورها تصطرع فى نفوس الجماهير التى تملأ الملعب الكبير . جماهير السادة المترفين والقادة العظماء ، من جهة ، وجماهير العبيد الأرقاء ، والعمال الجائعين ، والفلاحين البسطاء ، من الجهة الأخرى .

ولكنها صورة روما الحقيقية ، التي يعيش بعض الناس فيها وينعمون ، على حساب شقاء السواد الأعظم من الناس فى إمبراطوريتها الكبيرة . أو هى صورة العسف الأهوج فى كل زمان ، حيث لا تراعى للضعيف حرمة ولا كرامة .

وكان فى الصف الأمامى من المدرج الكبير عدد من المقاعد التى لا تزال خالية . ولما سأل أنطونيو رفيقه عنها ، أجابه هذا بأنها مقاعد الإمبراطور والإمبراطورة وصاحبها ، وبعض الحاشية .

وبعد فترة قصيرة تعالى الهتاف من مقاعد النبلاء ، فنظر أنطونيو ولونا ، وإذا الإمبراطور وزوجته ورجال الحاشية يسيرون بين الصفوف إلى مقاعدهم . وشعر الخطيبان بفتور وقلة اهتمام لمرأى الإمبراطورين .

إنها أول مرة يشاهدانهما فيها ، وكانت قبل اليوم رؤيتهما

أمنية عزيزة لديهما ، لما كان يثيره فى نفسيهما مجرد ذكر اسميهما من الروعة والجلال . أما الآن فإنهما لا يريان فيهما تلك العظمة الحقيقية .

إن مجىء الإمبراطورين الآن ليس ليجلسا على مقعد العدالة للدفاع عن حرية شعبهما وكرامته ؛ ولكن ليجلسا فى المكان الذى أنشئ لتسلية وحشية ، وليكونا قدوة سيئة لسادة الرومان ، فى الاستمتاع بمثل هذه اللذة المنحرفة ، لذة المتفرج على الوحوش الجائعة وهى تمزق أجساد مَن يدعونهم بالعبيد من أسراهم ورعاياهم .

ورفع الإمبراطور يده ثم أنزلها بإشارة خاصة ، فإذا الأسود فى وسط الساحة المسوّرة تنطلق مزمجرة هائجة من أقفاصها ، وتنطلق معها صيحات الجماهير المتفرجة تعرب عن اللذة الوحشية ، والحماسة الجنونية .

فنظرت لونا كما نظر أنطونيو إلى قلب الساحة برعب شديد وقد أخذ قلباهما يضطربان فى صدريهما كحيوانين مذبوحين ؛ وانفتحت عيونهما بحملقة مذعورة . وسرعان ما سقطت لونا بين يدى فتاها من الخوف والتأثر ، وغابت عن الوعى . أما أنطونيو فقد أخذ العرَق الحارّ ينحدر غزيراً عن جبينه ، وشعر بأن قواهُ تخونه ، فيرتمى واهناً إلى جانب فتاته . فبادر فلافيوس وبعض المتفرجين من الفلاحين إلى العناية بهما ، فحملوهما

من وسط الجماهير ، وابتعدوا بهما عن الملعب ، وجعلوا يرشون على وجهيهما ماءً بارداً، ويفركون جسميهما ليستردا الحياة.

وبعد مدة لا يدريان كم طالت ، استردا وعيهما ، وفتحا أعينهما ببطء وخوف ، فوجدا نفسيهما بعيدين عن ساحة الوحوش ، وحولهما رفيقهما وجماعة من الرومانيين البسطاء . وعلى وجوههم جميعاً علامات التأثر الشديد لهما .

وأسرع فلاڤيوس يطمئنهما ويسندهما للجلوس . ثم قال :

— لقد انتهى كل شيء . أنا آسف جداً لاصطحابى إياكما إلى هنا، ولكننى لم أكن أعتقد بأن المشهد يسبب لكما الإغماء .

فقالت لونا : هل افترستهم الوحوش جميعهم ؟

— نعم يا سيدتى . لم يكن من هذا بدّ . وماذا يفعل العبيد العزّل أمام الأسود الجائعة ؟

فأخفت لونا وجهها بيديها ، كأنما تمثل لها المشهد حياً من جديد ، حتى لقد كاد يعاودها الإغماء وتقع على الأرض ، لولا أن أسرع أنطونيو وفلاڤيوس يسندانها وينعشانها .

وقال أنطونيو وهو يعصر صدغيه بكلتا يديه :

— هذا فظيع جداً . إننى لم أتصور مطلقاً أن الإنسان يمكنه أن يتحجر فى صدره الضمير والشعور إلى هذا الحدّ . . . هيا بنا يا لونا نعود إلى الفندق ؛ فنحن فى أشد الحاجة إلى الراحة ، بعد هذا المشهد المريع .

* * *

فى اليوم التالى جاء فلافيوس يزورهما ، وإذ دخل عليهما فى الغرفة بادرهما قائلا وهو يبتسم :

ــ أرجو أن تكونا الآن أحسن حالا .

فأجابه أنطونيو : شكراً لك . إننا الآن بخير . لقد رافق مشهد الأمس الرهيب أحلامنا طوال الليل ؛ فقضينا ليلة شديدة الرعب . ولكننا الآن أحسن حالا .

ــ إذن سأكفر عن رعب الأمس بمشاهدة مبهجة هذا المساء . هل أنتما مستعدان لمرافقتى ؟

فسألت لونا : إلى أين هذه المرة ؟

فقال : اطمئنى إلى أن ما ستشهدينه مساء اليوم سيعجبك كثيراً ، وستتمنين لو كانت جميع حفلات روما وسهراتها من طرازه .

وقال أنطونيو :

ــ لقد أصبحت أشك فى أن يكون فى روما احتفال يبعث على الارتياح ؛ فالقلوب التى يتحجر فيها الشعور الإنسانى إلى الحد الذى رأيناه أمس ، غريب عليها أن تأتى أمراً جميلا ، يرضى الضمير النزيه .

فقال فلافيوس : بل سترى أنها قادرة على أن تخلق الأشياء الجميلة كذلك فاستعدا لمرافقتى عند المساء إلى المسرح .

فسألت لونا : المسرح ؟ وماذا هناك ؟

ــ سترين رواية يمثلها رجال ونساء ، ويرافقها عزف وغناء . وقد تجدين فيها فصولا مضحكة ومسلية . إن هذه متعة عقلية لطيفة ، يُقبل عليها الرومانيون الذين يحبون أن يستمتعوا استمتاعاً عقلياً بريئاً .

ــ إذن ستكون على استعداد عند المساء ، فشكراً لك .

* * *

كان المسرح يقوم فى قاعة كبيرة رحيبة جداً . وقد ركزت على جوانبها مشاعل ومصابيح عديدة ، تحول الظلام إلى نهار . وكانت القاعة تغصّ بمئات المقاعد التى يجلس عليها جماهير من عشاق المسرح .

وجلس الثلاثة بين الجماهير فى انتظار بدء التمثيل . ومضى فلافيوس يحدّث رفيقيه عن أثر الروايات المسرحية فى تثقيف الجماهير . وذكر لهما أن الرومان قد أولعوا بهذا الفن الجميل ، بعد أن قبسوه عن اليونان ، فصاروا يقلدونهم فيه ، ويمثلون كثيراً من المسرجيات اليونانية . وقد وجدوا فى الإكثار من هذا الفن تسلية بريئة وفائدة عقلية ، فى آن واحد . ولكن الشعراء الذين يوفقون فى تقديم هذا اللون الفنى للجماهير قلائل جداً ، وأقل براعة من شعراء اليونان القدماء ؛ وهم يلاقون الإجلال من جميع الرومانيين ، وتصبح رواياتهم وأقوالهم أغانى يتغنى بها عشاق الفن الجميل ، والمرهفو الإحساس من الرومان .

ثم بدأ التمثيل ، بعد أن أزيح الستار عن المسرح ، فشاهد أنطونيو ولونا لأول مرة فى حياتهما تسلية لطيفة من هذا النوع ، وأخذا بروعة التمثيل والموسيقى والغناء ، وضحكا كثيراً للمشاهد الفكهة التى تخللت الرواية ، حتى لقد تمنيا لو تطول السهرة كثيراً ، كما تمنيا لو تزور فرقة التمثيل قريتهم من حين إلى آخر ، ليشهد القرويون حفلاتها الجميلة ، ويستمعوا إلى أغانيها ومعزوفاتها اللذيذة المرحة .

ولما خرجوا من الحفلة ، قالت لونا :

— ما أجمل هذه الليلة ! ما ضرّ لو كانت ليالى روما وحفلاتها كلها من مثل هذا النوع البرىء المسلى المهذب للجميع ، والذى لا جور فيه ، ولا اعتداء ، ولا وحشية ؟

فقال فلافيوس : إن أنواع التسلية البريئة كهذه ، قليلة جداً فى المدينة . والذين يتاح لهم أن يستمتعوا بها قلائل جداً بالنسبة إلى عدد السكان الكبير؛ فأبناء الطبقات الفقيرة العاملة، محرومون — أو يكادون يكونون محرومين جميعهم — من كل متعة جميلة، بل إنهم هم أنفسهم وسائل التسلية واللذة لغيرهم . . .

وسأل أنطونيو : لقد انتهى يوم أمس بشره ، وانتهى هذا اليوم بخيره ، فما تخبىء لنا للغد ؟

فضحك فلافيوس وقال :

— لستُ أظنكما ستسران فى غد كما سررتما هذه الليلة ...

وكانوا قد وصلوا إذ ذاك إلى مكان ملىء بالأضواء الساطعة ، تتعالى منه أصوات ضوضاء وصخب ومجون وعربدة . فسأل أنطونيو : ماذا هنا ؟

فقال فلاڤيوس :

ـ إنها حانة يعربد فيها جنود الإمبراطورية المختلفو الأقوام والبلدان ، الذين يكثر وفودهم على روما للترفيه عن أنفسهم بالشراب والنساء الداعرات . إنهم خليط من الشرق والغرب ، من جميع البلدان التى يمتد عليها ظلّ روما . وهم يعلمون أن أيام لذاتهم قليلة ، لأن الحروب لا تسمح لهم بأكثر منها ؛ ولذلك يمنحون أنفسهم فيها الحرية المطلقة ، وينفقونها فى أنواع المتع الممكنة ، حراماً أو حلالا ؛ حتى لقد يقتلون من يحاول أن يقف فى سبيل لذة يبتغونها ، وحيثما اجتمع منهم فريق ، سمعت لهم مثل هذه الضوضاء ، التى يختلط فيها الضحك بالزعيق ، والسباب بالمغازلات الماجنة .

فقال أنطونيو مدهوشاً :

ـ ألا تستطيع روما أن تقدم لجنودها وسائل التسلية البريئة ، التى تصان فيها الحشمة والوقار والآداب ؟

ثم صمت الثلاثة ، ومضوا يقطعون الطريق القصيرة الباقية إلى الفندق . وقبل أن ينصرف كل منهم إلى غرفته ، قال أنطونيو لفلاڤيوس : كنا قد سألناك عن برنامجك للغد ،

ثم نسينا أن نستمع إلى جوابك . . . فماذا عندك للغد ؟

ــ أوه ! . . . لقد نسيت فى الحقيقة .

ــ ما رأيكما فى أن نذهب غداً إلى سوق العبيد ، لتريا كيف يباع هؤلاء الناس هناك ؟

فالتفت أنطونيو إلى فتاته متسائلا ، فرآها هى أيضاً تنظر إليه متسائلة ، فقال لها : هل يغمى عليك هناك أيضاً ؟ !

فسألته هى أيضاً ضاحكة :

ــ وأنت . . . ألا تخونك قواك أيضاً ؟ !

فضحك الثلاثة معاً ، وأجاب أنطونيو :

ــ كلا ؛ سأكون أكثر تجلداً لرؤية مآسى الإنسانية المعذبة البريئة .

فأجابت لونا :

ــ وسأكون أنا أيضاً كذلك... أقصد أننى سأحاول أن أتجلد.

فسألهما فلاڤيوس قائلا :

ــ أستطيع إذن أن أحزم أمرى على هذا للغد ؟

فجاء الجواب منهما معاً :

ــ أجل ، نحن موافقان . إلى اللقاء ، وشكراً لك .

ــ وشكراً لكما كذلك . إننى أحس بمزيد من السرور لمرافقتكما . طابت ليلتكما

ــ طابت ليلتك أيها الصديق .

٧

فى صباح اليوم التالى استيقظت لونا وهى تشعر بتهدم شديد فى جسمها ، وصداع شديد فى رأسها . فاضطرت إلى ملازمة الفراش ، واضطر أنطونيو إلى البقاء معها طول النهار للقيام على خدمتها ريثما تسترد نشاطها ، وعندما جاء فلافيوس ليأخذهما قرب الظهر إلى مكان بيع العبيد ، اعتذرا إليه بلطف ، ووعدا بأن يرافقاه حالما تسترد لونا نشاطها وعافيتها .

قالت لونا :

ـ إننى شديدة الرغبة فى أن أرى كيف يباع هؤلاء التعساء . وعسى أن أكون فى الغد أحسن حالا ، فنمضى معك .

فقال فلافيوس :

ـ أتمنى لك العافية ، وأنا دائماً فى خدمتكما ، إنكما إنسانان طيبان ؛ والمرء لا يجد الناس الطيبين كثيراً فى هذه الدنيا . طاب يومكما !

ـ شكراً لك أيها الصديق الكريم . إن وجودك فى روما ، كان مصدر غبطة لنا . ولولاك ما كنا عرفنا كيف نتصرف بوقتنا بشكل مجد ، فى هذه المدينة التى نزورها لأول مرة .

وتركهما الرجل ومضى لشأنه ، فى حين انصرف أنطونيو

إلى العناية بفتاته ، فأحضر لها طعاماً خفيفاً وشراباً منعشاً ، وجلس إلى جوارها يؤنسها .

وعند الأصيل أخذها إلى شرفة الفندق ، وجعلا ينظران من هناك إلى الشارع الكبير المكتظ بالمارة . وبعد قليل سمعا أصوات أوامر عسكرية عالية تقترب من هناك ، ورأيا المارة يهرعون كلهم إلى جانبي الشارع .

فسأل أنطونيو صاحب الفندق عن سبب ذلك ، فأخبره بأن طوابير من الجند تمر الآن من هناك فى عرض عسكرى .

فسأله أنطونيو :

— وإلى أين يذهبون ؟

— إنهم من الفرق الجديدة التى جهزها الرومان من أبنائهم ومن أبناء الشعوب التى يسيطرون على بلادها ، لإرسالها إلى الشرق ، وقوداً جديداً لحروب الإمبراطورية هناك .

فشكره أنطونيو على هذه المعلومات ، ومضى يرقب الشارع هو وفتاته . فمرت الجيوش من أمامهما ، بين هتافات الجماهير . وكانت ألوفاً من الجنود الشبان ، هيأتهم روما لمذابح جديدة .

وقال أنطونيو يخاطب فتاته :

— هذه أيضاً تسلية أخرى من تسليات طغاة روما . إنهم يقذفون بالشباب إلى النار لاكتساب ما يدعونه أمجاداً وطنية ، بالبطش والدماء . وكذلك . فيما يبدو لى ، طبيعة الدول والأمم

القوية ، المتنافسة على السلطان .

ـ البشرية لاتستطيع أن تسعد، ما دامت أطماع السلطان والعظمة والتوسع تعيش وتفرخ فى نفوس أقويائها . ولست أدرى أية أمجاد أعظم من أن يتعاون الناس على توفير السعادة لأنفسهم فى الحياة ، بالعمل ، وباستغلال كنوز الأرض وخيراتها بعدل ومحبة ؟ إن الأرض تكفى أبناء الجنس البشرى كله ، لو عرفوا كيف يحبونها ، ويتعاونون على استغلالها .

وبعد لحظات من الصمت، شرد فيها خيال لونا إلى القرية، وإلى ذويها وذوى فتاها هناك ، قالت :

ـ لقد أتاح لنا والدك هذه الرحلة ، متحملا الكثير فى سبيل توفير الراحة والتسلية لنا ، على الرغم من حاجته الشديدة لمساعدتك فى العمل .

فقال أنطونيو بتأثر شديد :

ـ حقاً إنه لفى أشد الحاجة إلىّ . فالسبعون المرهقة التى اجتازها إلى الآن ، لم تترك فى يديه وجسمه من القوة ما يكفى لأعمال الحقل والبيت، ولكنه لن يعدم من يعينه من أهل القرية، ريثما نعود .

ـ صحيح أن القرية كلها تخدمه ، ولكنك تعرف أنه يأبى أن يستغل أحداً ، كما أن حبه الطويل العميق للأرض والعمل لا يسمح له بالاعتماد على أحد ؛ فهو لا يطيق الابتعاد

عن العمل يوماً واحداً، برغم حاجته الشديدة إلى الراحة في هذه السن .

ــ مسكين أبي ! كم هو كريم هذا الشيخ الطيب !

ــ لقد أشتقت إليه كثيراً، وإلى والدتي وأخي كذلك . يجب أن نختصر هذه الإجازة قليلا ، لنعود إليهما . ألا توافقني على هذا يا حبيبي ؟

ــ بلى يا حبيبتي ، يجب أن نتخلص من المؤلمات العديدة في روما ، ونعود إليهم بأسرع ما يمكن .

قال أنطونيو هذا وهو ساهم ، شارد الفكر . ثم أردف يقول :

ــ ولكن بعد أن نرى سوق العبيد غداً . إنني أريد أن أشهد بعينيّ هذا النوع من مآسي البشر المساكين .

ــ حسناً ، سنبقى إلى الغد . ولكنّ نفسي قد شبعت من الألم . وفي القرية سننسى كل شيء ، وسنطوي صفحة روما ، فلا نذكرها بعد الآن ، لأن ذكرها سيعيد إلينا أسوأ رحلة يمكن أن نقوم بها ، إذ تذكرنا بالكثير من مآسي البشر المعذبين ، مآسي الملايين الذين يشقون ويتعذبون ويموتون ، في سبيل راحة الآحاد أو العشرات ، وإمتاعهم بأكثر اللذات وحشية وهمجية .

ــ بل سنظل نذكر روما ومآسي الإنسانية فيها دائماً ، لأن ذكرها سيحفزنا دائماً إلى أن نشعر مع المتألمين والمعذبين ،

فنسعى إلى التخفيف من آلامهم ، إن استطعنا ، أليس كذلك ؟ !

ــ أنت على حق يا حبيبي . أنا متأسفة ؛ لم أقصد هذا ...

* * *

فى الغد كانت لونا قد استردت نشاطها وصحتها . فلما جاء فلاڤيوس عند الظهر ، كانت هى وأنطونيو على استعداد للخروج معه .

وكانت السوق التى يباع فيها العبيد ، بعيدة عن الفندق مسافة غير قليلة ، فاستأجر الثلاثة عربة أوصلتهم إلى هناك .

وفى الطريق قال أنطونيو يخاطب فلاڤيوس :

ــ لقد صممنا ، لونا وأنا ، على أن نقصر إقامتنا فى روما ، فنسافر غداً ، بدلا من البقاء أسبوعاً آخر .

ــ لماذا ؟ هل سئمتما روما وعظمتها وجمالها ؟

ــ لا شك فى أن أسباب السآمة والألم فيها أكثر من أسباب التسلية والمتعة البريئة . فجمالها وفخامتها وحدائقها ومسارحها ، إنما تخفى وراءها أموراً أخرى شديدة الوقع على النفس المرهفة ؛ وقد شاهدنا منها القليل ، فاكتفينا وشبعنا .

ــ هذا مما يؤسفنى كثيراً . لقد كنت أود أن أطيل إقامتى ههنا لأجلكما ؛ فهناك أشياء كثيرة جداً كنت أحبّ أن ترياها ؛ فمثلا ....

فقاطعه أنطونيو قائلا :

ـ مثلا ماذا ؟ أشياء جميلة أم مؤلمة ؟ !

ـ كلاهما . . . فهناك مثلا النزهة بالقارب فى نهر التيبر . إنكما لم تتمتعا بعد بنزهة جميلة كهذه ؛ وهناك أيضاً . . .

فنظر كلٌ من أنطونيو ولونا إلى الآخر متسائلا . . . ثم قالت لونا مقاطعة كلام فلافيوس :

ـ لا حاجة للإيضاح ... ستكون نزهة النهر آخر ما نفعله فى روما ، لكيما نغادرها بعد مشهد جميل ، ترتاح إلى تذكره نفوسنا فى طريق العودة ، كما سترتاح لذكر ليلة المسرح ؛ وبذلك نعوض عن المشاهد المريعة الأخرى ، وآثارها فى نفسينا .

وقال أنطونيو :

ـ سنخصص لهذه النزهة النهرية يوماً كاملا . وليكن ذلك غداً . ما رأيك فى هذا ؟

فقال الرجل :

ـ ولكن هناك شيئاً آخر سيهمك أن تراه ، وإذا عُدْت بدون رؤيته ، ظلت رحلتك ناقصة .

فسألت لونا بدهشة واستغراب :

ـ ماذا هناك أيضاً ؟

فضحك الرجل وقال :

ـ إنه لن يكون من الأشياء الجميلة ، ولكنه من الأمور البارزة المشهورة فى حياة روما . أقصد من المظالم التى تشتهر بها...

ـ مظالم أخرى ؟ !

ـ بل هى لا تقل هولا وبشاعة عما رأيتماه فى ساحة الأسود . وهى تقام فى الملعب نفسه أيضاً . . .

فارتعبت لونا ، ونظرت إلى أنطونيو ، كأنما تستنجد به . وقال أنطونيو للرجل :

ـ ما الذى تريد أن تقوله ؟ أفصح يا سيدى !

ـ أريد أن أقول إنكما لم تشاهدا حفلات المصارعة ، التى يتمتع بها طغاة روما حين يرون الأسرى والعبيد يتفانون بالسلاح أمامهم . إنها حفلات قتال وحشى عنيف ، ستشهدان فيها حرباً دموية يخر ضحيتها عشرات من الشبان ، بدون ذنب ، وفى وقت قصير جداً . إنها إحدى مُتع سادة روما المألوفة . وغداً تقام حفلة منها ! فما رأيكما فى شهودها ؟

فأمسكت لونا بكتف أنطونيو بخوف ، وقالت :

ـ أنطونيو ! لا أريد . . . لا أريد . . . أخشى أن يُغمى علىّ إذا رأيت عملا وحشياً كهذا ؟

فهدأ أنطونيو روعها ، وقال :

ـ تشجعى يا حبيبتى ، فما تستطيع رقتنا وحدها أن تمنع غداً هذا المأساة ؛ ورؤيتنا لها ستزوّدنا بمشاعر جديدة للمستقبل ؛ يجب أن نذهب غداً لمشاهدة هذه الحفلة الدموية .

فقال فلاڤيوس :

ـ لقد كنت واثقاً من أنها ستثيركما ، وتحفزكما إلى مشاهدتها ، برغم ما فيها من بشاعة وهول . وبعد غد سنستأجر قارباً وننزل إلى التيبر ، نغسل بجماله وهوائه آثار هذه الحفلة المؤلمة فى نفوسنا .

ووقفت بهم العربة أمام ساحة كبيرة ، فيها عدد من الخيام ، وقد انتشر فيها مئات من الخلق ، يتفرجون على أسراب من الرجال والنساء والسبايا المعروضين للبيع . فقال فلافيوس لأنطونيو ولونا اللذين وقفا ينظران إليهم بألم شديد :

ـ القسم الأكبر من هؤلاء الرجال هم من الأسرى الذين تبيعهم الحكومة للأغنياء ، ليعملوا فى حقولهم ومزارعهم بقسوة متناهية . وهناك قسم آخر ممن سباهم القراصنة ، وجاؤوا بهم يبيعونهم إلى أشراف روما بأثمان بسيطة . أما النساء فكلهن من سبايا القراصنة ، وهم يختارونهن من ذوات الجمال الباهر ، كما تريان ، ويبيعونهن بأثمان عالية ، فيتخذ منهن سادة الرومان حظايا وجوارى ومغنيات فى قصورهم . والسوق ههنا لا تتوقف أبداً ، لأن الأسرى لا تنقطع سيولهم ، والدولة تسخر منهم من تشاء فى شؤونها الحقيرة أو الشاقة ، أو تسلى سادة الرومان بتقديم جماعات من هؤلاء الأسرى المساكين للوحوش ، أو بدفعهم إلى المصارعة ؛ وتبيع الباقى إلى النبلاء والأغنياء ، فيصبحون لديهم فى مقام البهائم أو السلع أو المتاع الحقير ، يتصرفون بهم كما

يشاؤون ، ويختارون من بينهم الأشداء أحياناً لحفلات المصارعة العامة .

وكانت لونا تتفرس فى هذه المعروضات البشرية . وتتأمل فى مذلتها ، فرأت بينها فتيات رائعات الجمال ينتحبن ، ويتضرعن طالبات الرحمة بهن وبأعراضهن من المهانة ، ولكن قلوب النخاسين القاسية لم تكن ترق لضراعاتهن ودموعهن ، وأيدى المشترين والمتفرجين ، لا تنفك تقلبن بعبث وسخرية ، وهم يساومون على أثمانهن .

وأما الأسرى من الرجال ، فقد كان المشترون يختارون من بينهم أقواهم أجساماً ، وأشدهم عضلات ، ليصلحوا لأعمالهم الشاقة المرهقة ! ثم يمضون بهم يجرّونهم بالسلاسل كالكلاب.

وأشد ما كان يمزق قلبى لونا وأنطونيو من هذه السوق ، منظر انفصال الأبناء عن آبائهم ، حين يصبح كل منهم عبداً لسيد غير سيد الآخر ؛ وانفصال الفتيات عن أمهاتهن كذلك .

لقد كانت تلك المشاهد بالغة حدّ التأثر المؤلم . ولكن النخاسين وطغاة الحكم ، كانوا قد اعتادوا مثلها فلم يأبهوا لها قط.

فلم يطق الحطيبان الطيبان البقاء طويلا أمام هذه المشاهد الأليمة ، فأسرعا فى ركوب العربة من جديد ، وأخذا معهما فلاڤيوس ، وعاد الجميع إلى الفندق ، ولكن من طريق آخر غير الذى جاءوا منه ، لأن رفيقهما أراد أن يرفه عن نفسيهما

قليلا بجولة صغيرة فى أحياء روما الجميلة .

وكان من أبرز الأمور التى استلفتت انتباه لونا ، كثرة التماثيل الرخامية والحجرية فى مداخل القصور ، وفى الساحات العامة ، والشوارع . فسألت عنها ، فحدثها فلاڤيوس بأن البعض منها تصنعه أيد رومانية ، ولكن القسم الأكبر منها – وهو يؤلف أعداداً ضخمة جداً – تماثيل مختلفة لشعوب وبلاد متعددة ، مما يحمله جنود روما إليها من البلاد التى يستولون عليها . فهم يستولون على كل ما هو جميل ونفيس فى البلاد المحتلة ، ويحملونه إلى روما . ومن ذلك ألوف التماثيل الجميلة ، المتعددة الأشكال والألوان والأنواع .

فسألت لونا بشىء من الحدة والغضب :

– هل يعنى هذا أن جنود الإمبراطورية يعملون فى الحرب واللصوصية معاً ؟ !

فأجاب الرجل بصوت شديد الانخفاض :

– هذه هى الحقيقة يا سيدتى ؛ فالحرب عندهم لا يمكن أن ترافقها رحمة ولا فضيلة ولا خلق نبيل .

فهزت لونا رأسها ولم تقل شيئاً . ونظرت إلى أنطونيو ، فإذا هو شارد الفكر فى ما يمر به من مناظر جميلة مختلفة .

ومروا بجانب نهر التيبر الجميل ، فطلب أنطونيو إلى السائق أن يقف العربة قليلا ، ليستنشقوا الهواء البليل الذى

تبعثه مياه النهر الصافية . ونزل الثلاثة يغسلون أيديهم ووجوههم بمائه .

وقالت لونا وهى تقف بعد ذلك لتجفف الماء عن يديها ووجهها :

ــ إن التيبر لهو الشىء الوحيد الجميل ، الذى سيظل خالداً فى روما . أما ملاهيها وفظائعها وقسوتها فستزول كلها ، ويظل هو ليمجد بصمته الأبدى العدل والرحمة ، ويسبح الجمال الحقيقى وسلام الضمير ، ويؤذن الأقوياء على مدى الأجيال بأن لكل قوة نهاية ، إلا قوة العدل والحق ، وقوة التعاون المخلص فى سبيل خير البشرية وصلاح الأرض .

فنظر إليها فلافيوس بإعجاب شديد ، وأجاب :

ــ كلامك جميل يا سيدتى . وهو الحقيقة التى تبحث عنها البشرية ، ولكنها ستتعب طويلاجداً قبل أن تحققها كما يجب .

وعاد الجميع إلى ركوب العربة ، وقبل أن تسير بهم نحو الفندق ، رفع أنطونيو يده تحية للنهر وقال :

ــ إلى اللقاء بعد غد ، أيها النهر الجميل .

* * *

كان اليوم التالى شديد البرد فى الصباح ، وقد اكفهرت السماء ، وتوقع الناس قبل الظهر أن ينهمر المطر غزيراً . ولكن

ما كاد ينتصف النهار حتى تبددت الغيوم ، وعادت الشمس ترسل أشعتها إلى الأرض من جديد ، دافئة جميلة ، وكأنما عزّ عليها أن تفسد على سادة روما متعتهم التى يترقبونها بعد ظهر ذلك النهار ؛ أو لعلها شاءت أن يستمر الطقس لطيفاً طوال المدة التى يقضيها أنطونيو ولونا فى عاصمة الإمبراطورية .

وقبل موعد الحفلة كان الخطيبان ورفيقهما يهبطان من العربة أمام مدخل الملعب العظيم ، الغاص بالألوف من الرومانيين ، والغرباء الذين جاؤوا يشهدون الحفلة العنيفة . واتخذ الثلاثة أماكن لجلوسهم ، وراحوا ينظرون إلى العشرات من الشبان الأقوياء الواقفين فى قلب الساحة ، تحت نظر المتفرجين جميعهم ؛ بأيديهم الخناجر والسيوف والفؤوس ، وعلى أجسامهم ورؤوسهم الدروع والخوذات ، وهم يترقبون الإشارة لبدء المصارعة ، لينقض كل منهم على الآخر بأعنف ما ما يستطيع ، وكأن بينهم ثارات قديمة لا يمحوها سوى الدم ؛ وما كان بهم من ثأر ، ولكنها إرادة أسيادهم ، ولذاتهم المجرمة التى لا تتم بغير هذه الوحشية الغريبة .

وحينما أعطيت إشارة البدء ، انقض المتصارعون بعضهم على بعض ، وراحت الجثث تتساقط متتابعة ، والدماء تتناثر على تراب الساحة ، فتترك فى التراب بركاً صغيرة ؛ بينما كانت تتعالى من مقاعد المتفرجين صيحات الحماسة العظيمة، تعرب

عن مدى التلذذ والتشفى !

— على رأسه يا شيبيو !

— فى صدره . . . آه . . . هكذا . . . ضربة أخرى يا ريموس !

ولا تلبث أن تملأ الجو صيحات الفرح الكبير كلما سقط على التراب جسد جديد .

ولم تطق لونا النظر إلى هذه المعارك الوحشية ، فدفنت وجهها فى صدر أنطونيو لتتفادى الإغماء . أما أنطونيو فقد ظل يحدق فى الساحة ، وفى نفسه ثورة تشبه الزوبعة الهائلة من النقمة والاشمئزاز .

فلاحظ فلاڤيوس علامات النقمة على وجهه ، فوضع يده على ركبته ليحذره من التورط فى عمل أو إشارة يسىء بها إلى نفسه وإلى فتاته . وقد جاء تحذيره فى الوقت المناسب ، فتغلب أنطونيو على ثورة نفسه ، وظل ينظر إلى الملعب بصمت ، ويداه تمسكان بذراعى لونا المستندتين إلى كتفه .

وكانت لونا كلما رفعت وجهها عن صدره ونظرت إلى الملعب ، لا تلبث أن تعود فتدفن وجهها فى صدره من جديد . فأحس أنطونيو بأن بقاءها ههنا قد يفضى بها إلى الإغماء ، أو إلى الإجهاد الشديد . فطلب إلى رفيقه أن يعود بهما إلى الفندق ، فقد كفى ما رأياه ، ولم يعد بهما حاجة إلى البقاء إلى

أن يفنى جميع المتصارعين .

فنهض الثلاثة وركبوا العربة وعادوا إلى الفندق . فما إن دخل الخطيبان غرفتهما حتى استلقى كل منهما على فراشه بإعياء بالغ من أثر ما شاهداه فى الملعب الدموى .

وطافت بخيال لونا صور كل ما شاهدته فى روما منذ اليوم الأول ، فكان كل شىء هائلا :

عبيد يجرون عربة سيدة مترفة والسياط تلهب جلودهم بلا ذنب . . . وآخرون يطرحون طعاماً للوحوش لتسلية سادة روما . . . وبدون ذنب أيضاً . . . وغيرهم يتفانون بوحشية ليستمتع بذلك أشراف الرومان . . . وبدون ذنب كذلك . . .

وماذا بعد ؟

أليس فى الدنيا شىء آخر غير السيادة والعبودية ؟ أو ليس ثمت شىء غير القوة والضعف ؟ وما الذى يميز بين السادة والعبيد من مزايا الإنسانية ؟!

لا شىء ! لا شىء مطلقاً ! فعلام هذا كله ؟!

حقاً إن هناك ما يميز كلا الفريقين . . . فالقوى تميزه قوته وأطماعه ولذاته ؛ والضعيف يميزه ضعفه وخنوعه وهوانه . ومتى أتيح للضعيف أن يتغلب على مزايا ضعفه ، فلن يعود ضعيفاً ، ولكنه سيصبح نداً للأقوياء ، وستكون له حريته وكرامته وحقه فى الحياة الرخية مثلهم ، ويعلمهم كيف ينظرون

إليه كإنسان مساو لهم فى الإنسانية .

* * *

لم يبق على أنطونيو ولونا من برنامج الرحلة سوى نزهة النهر . وها هما أولاء يتهيآن لها ، ثم يخرجان مع رفيقهما إلى حيث يستأجرون قارباً ، وينزلون إلى الماء .

كان الجو صحواً ، والهواء لطيفاً ؛ وكان منظر المياه الزرقاء الجارية يبعث فى النفس أعمق شعور بالجمال والراحة والسعادة. فشعرت لونا بانتعاش فى نفسها ، وحيوية دافقة فى جسمها ، كانت تعبر عنهما برغبتها الجادة فى المرح والضحك والحديث . وقد سرت العدوى منها إلى أنطونيو ، فكأنما نسى الاثنان مشاهد الأمس وما قبله ، فلم يعودا يذكران سوى أنهما يستمتعان بنزهة جميلة فى عاصمة الدنيا ، بين زرقة الماء والسماء ، وأنهما سيعودان غداً إلى القرية ، وفى جسميهما نشاط ، وفى صدريهما اغتباط سيعينانهما على العودة إلى أعمال الحقل بلذة ونشاط .

أما فلافيوس فقد كان يكتم فى نفسه شعوراً كان يعذبه منذ أن وقعت عيناه على لونا فى الفندق للمرة الأولى . وهو الآن كلما رآها فى مرحها وحيويتها ، وهى فى نزهتها النهرية الجميلة ، شعر بقلبه يخفق ويضطرب بشدة ، فلا يستطيع إلا أن يسكته ، بأن يخفض بصره دونها ، لئلا تفضحه عيناه .

إنه لا يريد أن يعكر على الشابين السعيدين حبهما

وسعادتهما . فليكبت شعوره فى صدره ، وليعش بعد اليوم على حرمانه القاسى ، ويترك لها أن تذكره دائماً كصديق تطيب ذكراه فقط .

وتذكر أنطونيو والده ، فابتسم وقال يخاطب لونا :

ــ إنه الآن فى انتظار عودتنا . . . يخيل إلى أنه يحسب لعودتنا الساعات !

فقالت لونا :

ــ إنك تعنى أباك ، بلا شك ! ما أشد شوقى إلى تقبيل جبينه المتغضن ، ويديه المتجعدتين المعروقتين ! سنحدثه متى عدنا عن نزهتنا هذه ، وسنفيض فى وصف جمال الماء ورقة الهواء ؛ وعن الخضرة التى تحف بالشاطئين ؛ والقوارب الصغيرة التى يتنزه بها السعداء فى النهر ؛ والأمواج الصغيرة الناعمة التى تشبه غضون وجهه النبيل . سنحدثه بكل هذا ؟ أليس كذلك يا أنطونيو ؟ !

ــ وبماذا أيضاً ستحدثينه ؟

ـ دعنا الآن ننسى كل شىء عدا هذه النزهة .

وظل القارب يجرى مع النهر نزولا وصعوداً ، حتى تجاوز الوقت منتصف النهار . فرأى أنطونيو ولونا أن يعودا لكى يبتاعا من الأسواق بعض الهدايا الجميلة الخفيفة ، ويتأهبا للسفر الطويل فى صباح الغد . فخرجا إلى الشاطئ ، وألقيا على التيبر

تحية الوداع . ثم مضيا مع فلاڤيوس ، وابتاعا من السوق ما طاب لهما من الهدايا ، ثم قصدا إلى الفندق ليستريحا ويحزما أمتعتهما لرحلة الغد .

وقبل أن يفترقا عن رفيقهما الطيب عند باب غرفته فى الفندق ، صافحاه بحرارة ، وشكراه على الرفقة الطيبة التى أتاحها لهما. ودعواه إلى زيارتهما فى «مانيا» ليقوما نحوه بواجب الخدمة التى يستحقها . فوعد بالزيارة .

ولمحت لونا فى عينيه شبح دمعتين تجولان ، فتزجرهما كبرياؤه عن النزول . ولاحظت أنه يود أن يحدق فيها طويلا ، وأنه حين صافحها ، أبقى يدها فى يده مدة أطول من المألوف . ولكنها لم تفطن إلى الحقيقة كما هى ، وإنما اعتبرت ذلك مظهراً من مظاهر الطيبة والوفاء اللذين لقياهما منه فى هذه المدينة.

أما هو فقد كان فى صدره بركان يريد أن ينفجر . لقد شعر فى هذه الأيام القليلة التى عرف فيها لونا بسعادة لم يشعر بمثلها قط . ولكنه سيئ الحظ جداً ، فقد وقع قلبه على حبة فى فم طائر آخر سبقه إلى التقاطها . وتأبى عليه أخلاقه ونبله أن ينتزعها من فمه اقتساراً . ثم إنها ، فيما يظهر ، شديدة الحب لفتاها ، فمن النذالة أن يحاول معها أية محاولة ؛ كما أن من المؤكد أن أية محاولة من جانبه ، ستخفق حتماً ، وستكون نتيجتها أن ينقلب احترام الفتاة وخطيبها له إلى احتقار أليم .

وإذن . . . ليس له إلا أن يكتم ما بقلبه ، ويعالج آلامه بصبر ورجولة . . . أما لونا وفتاها فلتبارك الآلهة حبهما ؛ إنهما طيبا القلب جداً ، وجديران بالحب والسعادة .

وفى صباح الغد ، حينما كانت لونا تجلس فى مكانها من العربة إلى جانب خطيبها ، ليعودا إلى مانيا ، كان فلاڤيوس يتزود منها بآخر نظرة من نافذة الفندق . فلما مضت الجياد بالعربة لتختفى بمن فيها فى زحام الشارع ، عاد إلى غرفته ينتحب بحرارة ، ويودع سعادة القلب التى طارت وراء المسافرين السعيدين .

* * *

بعد يومين كان الشيخ ساڤيو والسيدة ديانا وابنها يستقبلون الخطيبين العائدين من روما . وكان عناق حار وفرح عظيم باللقاء. وقال الشيخ :

ـ أرجو أن تكونا قد شاهدتما الشيء الكثير فى روما ، وسررتما بزيارتكما .

فجعل أنطونيو ولونا يتناوبان الحديث عن مشاهداتهما ، ويبديان بين الحين والحين امتعاضهما وألمهما للمشاهد العنيفة والمؤلمة التى رأياها . وفى نهاية الحديث قال أنطونيو :

ـ لقد وجدت روما تعيش بروح القتل والقتال وحدهما ؛ فهى دائماً فى حروب أو استعدادات للحروب فى الخارج ،

وأما فى الداخل فهى تتلذذ بالقتل والبطش فى ملاعبها العامة ، وفى معاملاتها للناس . وهذا يجعلنى أقدر قيمة السعادة الحقيقية التى نعيش نحن فيها ههنا ، بعيدين عن روما ، وعن روح سادة روما .

فضحك الشيخ وقال :

ـ أنا سعيد جداً بأنك قد عدت إلينا باختبارات جديدة نافعة . وستفيدك هذه الاختبارات فى ما كنت عازماً عليه قبل رحلتك ، من السعى مع إخواننا فى القرى المجاورة ، لتأليف جماعة « أصدقاء الأرض » . هل نسيت ذلك ؟

ـ كلا يا أبت ؟ بل لقد أصبحت الآن أكثر تصميماً منى قبل الرحلة . فالشقاء الإنسانى الذى لمسته فى روما ، يدفعنى بكل قوة إلى أن أجنب جيرانى مثله بقدر ما أستطيع .

فاقترب الشيخ من ولده ، وتناول وجهه بين يديه ، وقال له بملء الحنان والفخر ، وهو يطبع على جبينه قبلة حارة :

ـ أنا شديد الفخر بك أكثر مما كنت دائماً . فلتباركك الآلهة ؛ ولتقد فى طريق النجاح خطاك يا بنى ! إن شيخوختى تستطيع الآن أن تطمئن كل الاطمئنان إلى أن ابنى ، وذخر شيخوختى ، قد أصبح رجلا وإنساناً حقيقياً .

* * *

بعد أن استراح أنطونيو نحو أسبوع من رحلته ، وأنجز

ما تأخر من أعمال والده بسبب غيبته ، شرع يمضى كل يوم من أيام فراغه إلى القرى المجاورة ، فيتصل بشبابها وشيوخها ، فيحاول معهم نفس المحاولة التى فشل فيها والده من قبله ، ويدعوهم بحماسة وحرارة إلى العمل وحب الأرض ، وإلى التعاون فى خدمتها لضمان السعادة والرزق الحلال والعيش الشريف . وكان يقص عليهم ما شاهده من هوان البشرية الضعيفة ، ويؤكد لهم أن لا سبيل إلى السعادة ولا إلى الحرية أو الكرامة بدون الأرض ، وبدون التعاون المخلص فى العمل فيها .

فكان الناس فى البداية يقابلون حماسته بالبرودة ، وحرارته بالسخرية . ولكنه لم يلبث أن وجد بعد ذلك استعداداً لدى عدد من الشبان فى ثلاث من القرى ، كانت جونو واحدة منها . فراح يشترك هو وبعض أقرانه من المانيين فى تدريبهم على العمل والغرس وإصلاح الأراضى وريها وما إلى ذلك .

وكان سروره وسرور والده بهذا النجاح الصغير عظيماً جداً ، وصار لا يدخر وسعاً فى رعيه وإنمائه ليضمن من بعده النجاح الكبير . وكان كلما زار قرية من هذه القرى الثلاث ، ورأى رجلا مجداً فى العمل ، يبتسم ابتسامة القائد المنتصر ، ويربت على كتف الرجل مشجعاً ومستزيداً .

ولكن الأيام لم تبق على فرحته كاملة ، وفرحة والده ، فقد صار الكسالى والحساد ، من الجونيين وحدهم يعتدون فى ظلمة الليل على الأراضى التى كان يتعب بها « أصدقاء الأرض » ، فيتلفونها وينتزعون ما فيها من غراس فيحطمونها ويرمونها بعيداً . أما القريتان الأخريان فقد استمر العمل فيهما ينجح ويتقدم بكثير من البطء والتؤدة .

وكان تكرر الحوادث المزعجة فى جونو ، سبباً فى فتور همم العاملين النشيطين فيها ، ورجوعهم عن العمل فى الأرض ، لئلا تظل جهودهم تذهب سدى على هذا الشكل .

وكانت خيبة أنطونيو لذلك عظيمة ، وكان حزنه عظيماً أيضاً ، فقد رأى أن من العبث أن يستمر فى دعوته فى جونو ؛ فانصرف عنها وفى نفسه جراح عميقة من أثر الخيبة .

ولكن الشيخ سافيو شاء أن يعزيه ، فقال له :

ــ لا حاجة لليأس يا ولدى ، فقد كان إخفاقى السابق أمرّ وأقسى من إخفاقك . ومع ذلك فإننا سنظل نعمل ههنا بنشاط وهمة ، ونتعهد نشاط إخواننا فى القريتين الباقيتين ؛ فعسى أن يعدي نشاطنا هذا جيراننا الجونيين مع طول المدة ، فيقبلون مثلنا على العمل من تلقاء أنفسهم ، حين يروننا دائماً فى خير دافق ، ويرون أنفسهم دائماً فى حاجة إلى ثمر جهودنا ، وخيرات أرضنا ، أو على الأصح إلى فضلاتنا .

وسمع الشيخ ولده يتمتم لنفسه :

ـ كنت أحب أن أنتزع كل بذرة شريرة من نفوس الجونيين، ولكننى أخفقت فى هذا. وخوفى عظيم من أن تنمو بذور الشر هذه نمواً كبيراً يؤدى إلى شرور عظيمة ! . .

٨

كان موسم الحصاد . . . الموعد الذى اعتادت مانيا أن تقيم فيه مهرجانها لتقديم القرابين إلى الآلهة . وهو فى الوقت نفسه – هذه المرة – الموعد الذى يترقبه أنطونيو ولونا بشوق عظيم ، لاستكمال فرحتهما بالزواج ، بعد الانتهاء من مراسيم المهرجان وقرابين الآلهة .

وكانت سعادة الخطيبين غامرة دافقة ، كما كانت فرحة الشيخ سافيو والسيدة ديانا بقرب الزفاف عميقة جداً .

واجتمعت القرية كلها فى مهرجانها العظيم المألوف ، لتقديم القرابين من غلال الأرض فى معبد القرية ، إلى الإلهة سيريس ، قبل البدء بالحصاد . وانتشر الرجال والنساء والأطفال والشيوخ والعجائز ، فى المروج والحقول القريبة ، يقطفون السنابل الصفراء ، ويحزمونها باقات صغيرة ، ثم يعودون ليجتمعوا فى وسط القرية ، حتى إذا تكامل الجمع ، ساروا بعد ذلك جماعة واحدة إلى المعبد ، وهم ينشدون أناشيدهم المعتادة فى شكر الآلهة ، وطلب استمرار الخصب والبركة فى حقول القرية .

وكان الكاهن الشيخ ينتظر وصولهم داخل المعبد ، وقد

ارتدى ثياب المراسيم الدينية ، استعداداً للبدء فى إجراء هذه المراسيم .

ووصل المهرجان إلى باب المعبد :

جموع فرحة مرتلة ، تطفح وجوهها بالبشر والسعادة ، وتفيض قلوبها بالشكر والعرفان للآلهة التى تغمرهم بالعطايا والبركات . وكانوا جميعهم فى ثياب الحقل ؛ فقد كانوا يؤمنون إيماناً عميقاً بأن ثوب العمل المغبّر ، هو الثوب المقدس الذى يليق بجلال العبادة ، وقداسة الروح وخشوعها ؛ وهو وحده الذى يدل على النشاط وحب الحياة وحب العمل .

وخرج الأب المقدس يستقبلهم على الباب .

لقد كان يبدو أن هذا أروع أعياد القرية ؛ فكانت التراتيل تنطلق حلوة حلوة ، كجنى الحقول ، من حناجر الأطفال والصبايا ، والشيوخ والشبان . وكان الشيوخ والعجائز يشعرون بتجدد الشباب وحيوية الروح فى ذلك المهرجان الإلهى الرائع .

وأخذ الكاهن من يد الشيخ سافيو باقة صغيرة من السنابل الصفراء ، وسار أمام المهرجان إلى داخل المعبد ، حيث يقوم تمثال الإلهة الجميلة ، حارسة الحقول وربة الحصاد والخصب . ورفع الباقة بيديه ، ورفع عينيه إلى وجه التمثال العالى لكى يبدأ صلاة تقديم القربان . ولكن . . .

ولكنه سرعان ما ارتدت يداه إلى جانبيه ، وقد سرت فى جسده النحيل المتداعى رعشة عنيفة . فصمتت التراتيل والأناشيد ، وجف الفرح فى وجوه الجميع . ونظر الجميع إلى وجه التمثال ، فرأوا ما ملأ قلوبهم فزعاً . . .

لقد كان على وجه التمثال كآبة شديدة الوضوح ، وكان فى عينيه دموع . . . دموع حقيقية ! . . فمن أين جاءت هذه الدموع ؟ ! وهل يبكى الرخام ؟!

والتفت الجميع إلى تمثال ڤينوس ، على الجهة المقابلة ، فإذا هو مثل تمثال سيريس كآبة ودموعاً . . .

فأطرقت الجموع أسًى وحيرة ، وانصبّت الأنظار جميعها على الأب المقدس .

ألا ليته يتكلم ! فقد يستطيع أن يفسر لهم هذه الظاهرة الغريبة !

إن مثل هذا لم يقع قط فى قريتهم ، ولا علم أحد منهم بوقوع مثله قط فى أي مكانٍ آخر . . . فماذا عسى أن يكون معناه ؟ !

واستدار الأب المقدس أخيراً إلى الجمع ، وما يزال مطرقاً إلى الأرض ، ممتلئ النفس بالألم ، والكآبة تخطّ أقسى خطوطها فى وجهه المتغضّن . ثم قال لهم بلهجة مفعمة بالحزن ، وبدون أن يرفع إليهم رأسه :

– صلّوا معى ليمنع عنكم جوبيتر الشر . إن كارثة عظيمة ستقع فى قريتنا ؛ وليست دموع إلهتينا العظيمتين سوى نذير بالكارثة .

ثم استدار إلى حيث تمثال جوبيتر ، وجثا أمامه بخشوع عميق . ففعل الجميع مثله ، وانطلقت من جميع الأفواه ، ومن أعماق جميع القلوب ، صلاة حارة ردّدوها وراء الأب المقدس :

« أيها الرب جوبيتر العظيم ! ارفع غضبك عنا ، وليستمر السلام فى أرضنا ، لنظل نعبدك بإيمان وطمأنينة ، فلا يعوقنا شيء عن عبادتك ! »

* * *

وخرج الجميع من المعبد ، وقد طارت من النفوس بهجة العيد ، ونشوة المهرجان .

لقد تحوّل كل شيء فى نفوسهم إلى سواد ، فما فى قلوبهم سوى التوجس فى شر قريب غير منظور .

عاد الجميع إلى بيوتهم يبحثون فى قرارة نفوسهم عن سبب يمكن أن يؤدى إلى وقوع الشر بهم وبقريتهم ؛ فلم يجدوا السبب . . .

إنهم على أتم وئام مع الآلهة ومع الناس ؛ وموسم الغلال والثمار يبعث على الارتياح العظيم ، فإنه يكفيهم ويكفى جميع القرى المجاورة لهم . فما الذى سيقع إذاً حتى تبكى إلهتاهم سيريس

وفينوس دموعاً حقيقية من عيون التمثالين المرمريين ؟ !

أما أنطونيو ولونا فقد كانت الصدمة فى نفسيهما مزدوجة ، وكان وقعها شديداً جداً ، فقد طارت بالفرحة التى بنيا على لذتها أحلاماً بعيدة كلها سعادة وجمال ولذة . فانطويا على نفسيهما ، وفى عينى كل منهما دموع لا يستطيعان لها حبساً .

لقد كانا يحبان قريتهما حباً يعادل حبهما المتبادل ؛ ولم يكن وقع الصدمة فى نفوس أهل القرية إلا ليضاعف وقعها فى نفسيهما ، ويضاعف من ذهولهما لها ، وحيرتهما من الكارثة المرتقبة . . .

ولكن أحداً منهما ومن أهل القرية لم يستطع أن يرقى بظنه إلى الحقيقة المرعبة . . . وأى حقيقة مرعبة هى ؟ ! . . .

لقد مل إله الحرب (مارس) من طول ما ضايقه السلام الطويل الذى نعمت فيه مانيا ، فأراد أن يحرك فوقها صواعقه .

إنه إله جبار ، لا يعيش إلا فى قلب الصواعق ، وعلى ظهور الرعود والبروق . ولذلك صمم على أن يلقى من صواعقه المرعبة شراراً فى هذه القرية الوادعة الآمنة .

فلما علمت سيريس بعزمه هالها الأمر ، ورأت أن كل ما وفرته للقرية من خير ودعة وسلام ، سيتلاشى ولن يعقب غير الدمار والحزن والفجائع . . .

ستجف الأرض فلا تطلع عشباً ، ولا غلالا ، ولا ثماراً ،

ولا أزاهير ؛ لأن صواعق مارس تحرق كل ما تقع عليه .

فأسرعت تصب النبأ الصاعق فى أذن رفيقتها ڤينوس ؛ قالت :

– نفسى حزينة جدًّا يا أختاه ؛ فإن رفيقنا مارس قد عزم على أن يبدأ عمله فى مانيا . ومعنى هذا أنه سيدمّر رعايتى الطويلة ، وجهود القرية كلها التى بذلت فيها السنين الطوال فى دأب مستمر . ستجف الأرض فلا تعطى خيراتها ، وستضيع السعادة من حياة الناس ، ويموت الفرح فى قلوبهم . لقد شاء مارس أن يسخّر صواعقه لتدمير سعادة مانيا الجميلة . لقد لبس خوذته ودرعه ، بعد أن خلعهما فترة ما ؟ ولم يبق إلا أن يحمل سيفه ، ويمس به الغيوم ، لتبدأ الصواعق عملها .

فانتفضت ڤينوس فزعاً وألماً لهذا النبأ المرعب ، وقالت بحدة ومرارة معاً :

– وستجف كذلك البشاشة والنضارة فى وجوه الشبان والعذارى ، والحب فى قلوبهم . وسينهدم كل ما وفّرته للشبان والصبايا والأزواج الأوفياء من سلام الروح وهوى القلب ، ومن جمال الحب وسعادة الحياة . . . أنت وأنا يا أختاه ، ستمسح صواعق مارس كل ما عملناه على الأرض من خير ، وما أشعناه من سلام . . .

وأسرعت الإلهتان ترفعان ضراعتهما إلى الإله الأكبر

جوبيتر . فقالت سيريس :

ــ أيها الرب العظيم ! أنت أبونا وأبو البشر جميعاً ، وأنت سبب سعادة الحياة . فلن يرضيك أن يقع الشر على أيدى الآلهة . فمر بأن يقف مارس عن عزمه ، وأن تستمر السعادة فى حياة الناس ، والخصب والخير فى حقولهم .

وقالت ڤينوس :

ــ نعم ، أيها الإله الأكبر ، مر بأن تظل صواعق مارس خرساء ؛ فلا تدمر بيتاً ، ولا تخرس لحناً فى حنجرة طائر ، ولا غضارة فى غصن شجرة ، ولا بشاشة فى برعم سوسنة ، ولا بسمة على ثغر فتاة ، ولا ثغاء فى لهاة حمل . . . مر بأن تظل حياة الناس حبًّا وجمالا وفرحاً ، وعبادة مخلصة لاسمك القدوس ومجدك الأعظم . . .

ثم شخصت عيون الإلهتين بضراعة حارة إلى وجه الإله الأكبر ، تنتظران حكمه وأمره ، وفى نفسيهما لهفة محرقة . وكان جوبيتر يصغى إلى تضرعاتهما ، وعلى ثغره ابتسامة تقطر ألماً .

إنه يحب أن تسود السعادة فى الأرض ، ولكنه فى الوقت نفسه لا يريد أن يمنع الآلهة الآخرين من التصرف كما يشاؤون . ولذلك أجاب الإلهتين بقوله :

ــ إن محبتكما لأبنائى وعبادى تبعث الرضى فى قلبى الكبير . ولكن زميلكما الإله مارس سيغضب وسيتألم كثيراً إن

نحن حاولنا أن نحدّ من حريته ، ونعطل إرادته . . . أنتما تمارسان عملكما كما تشاءان ، وهو كذلك يمارس عمله كما يشاء ، لأن الآلهة حرة فيما تعمل . والأرض التى تذوق من فضلنا الفرح والسعادة طويلا ، لا بد لها من أن تحس — من فضلنا أيضاً ! ! — بلذعة الحزن والشقاء كذلك . وإن طول السعادة قد يبطر بعض الناس ، فينسيهم ذكرنا وعبادتنا ، كما يلهيهم عن الشعور بمآسى الآخرين . ولهذا قد يكون الشر تذكيراً لهذا البعض بأن الآلهة موجودة ، وقادرة ؛ وبأن فى الأرض مآسى يجب أن ينصرفوا إلى تخفيفها عن أصحابها . . . فليفعل مارس ما يشاء ، فإن صواعقه التى يوزعها بلا انقطاع فى دنيا البشر ، قد تحرق من الأرض — فى كثير من الأحيان — مفاسد كثيرة ، ومن نفوس البشر خبائث كثيرة أيضاً . . . وإذا كان أهل مانيا لا يستحقون غضبه ، فقد يكون الشر الذى يقع عليهم ، سبباً فى تطهير آخرين غيرهم . . . إن الآلهة يجب أن تظهر مقدرتها من حين إلى آخر ، وبشىء من الشر ، لكى يظل الناس يتذكرونها ويخشونها ؛ لأن إخلادهم إلى عدلنا ورحمتنا وحناننا وحدها ، ليس سوى تدليل وتخدير لنفوسهم ...

فأجابت سيريس بكثير من الكآبة والضراعة :

— ولكننا أظهرنا للناس عظمة الآلهة ومقدرتها ، بما أشعناه بينهم من بركة وخير وسعادة . أفلا يكفى الخير ، يا سيد

الآلهة ، ليظهر عظمتنا للناس ، ويكسبنا عبادتهم وتمجيدهم بلا انقطاع ؟ ! أليس عمل الخير أجدر بنا نحن الآلهة ؟ !

وقالت ڤينوس :

ـ إن الناس فى مانيا لا يفترون عن شكرنا وعرفان جميلنا ، أيها الإله الأعظم . وهذا دليل صادق على أن الخير والرحمة لا يخدّران النفوس ، بل يبعثان فيها نبل الإحساس ، وصدق العرفان . وأخشى أن تنقلب عبادتهم كفراً ، وعرفانهم نقمة ، يوم تتحول رحمة الآلهة انتقاماً غير عادل !

ولكن جوبيتر لم يشأ المضى فى الحديث ؛ فهز رأسه وقال :

ـ فليفعل مارس ما يشاء ! إنه إله مثلكما ، وله كامل الحرية فى أن يمارس عمله الإلهى العظيم بالشكل الذى يريده ! ...

وبينما كانت الإلهتان تهمان بالانصراف بخيبتهما ، ظهر مارس بسحنته المقطبة الصارمة ، كقائد شرس يستعد لخوض معركة هائلة . وكان يضرب بقدميه الضخمتين هامات الغيوم فترتجف وتميد من وقعهما . فوقفت الإلهتان ، وقال جوبيتر يخاطبه :

ـ لقد جئت فى الوقت المناسب . فقد جاءت هاتان الإلهتان ترجوان أن تقف غضبك عن مانيا ، وتتركها تكمل أفراحها ، ويسعد أهلها بخيراتها ؛ فلا تنغص عليهم فرحة المهرجان ، وبهجة الموسم ، وغبطة العرس .

فلاح على شفتى إله الحرب المطبقتين شبح ابتسامة صارمة ساخرة ، وأجاب قائلا :

ــ ليست الحرب شيئاً غريباً على أهل الأرض ، فهى من الظواهر المألوفة لديهم ، وهم يتوقعون حدوثها فى كل حين . ولا تجهل الإلهتان الكريمتان أن الأرض كلها أتون مشتعل بالحروب فى كل حين ؛ وها أناذا أسوق أبناء الإمبراطورية الرومانية إلى كل أرض ، فى الشرق والغرب ، لأغذّى بأجسامهم النيران المندلعة التى أشعلها ، وأحافظ على استمرار اضطرامها .

فنظرت إليه سيريس باستعطاف ، وقالت :

ــ ولكن أهل مانيا قوم مسالمون ، لا جريرة لهم ، ولا يتوقعون اعتداء من أحد عليهم ، لأنهم لا يفكرون فى الاعتداء على غيرهم . أفلا تقتضى العدالة الإلهية أن يتجنب هؤلاء الأبرياء ويلات الحرب ، ما داموا لا يسيئون إلى أحد ، ولا يستحقون شرًّا من أحد ؟ !

ــ ليس كل الذين تصيبهم الشرور يستحقونها . إن الشرور تصيب المجرم والبرىء على السواء . . . كذلك كانت إرادتنا نحن الآلهة منذ الأزل ، وكذلك ستظل إلى الأبد ! ..

ــ ولكن عدالة الآلهة لا تستقيم إذا هى قبلت مثل هذا الجور المستمر ؟!

ــ ليس فى ما تقضى به الآلهة جور . إن الآلهة هى التى

أوجدت الشر إلى جانب الخير منذ الأزل ، وهى التى سمحت بوجود الأشرار إلى جانب الأخيار فى كل أرض ؛ وهى كذلك التى جعلت الحرب سنة تجرى على أهل الأرض ، وسخرت الصواعق والرعود والبروق ، لتستخدمها فى أحيان كثيرة للخراب والتدمير وهلاك البشر .

— إننى أرجوك لأجل مانيا وحدها ، لتتم أفراح مهرجاناتهم ومواسمهم وأعراسهم .

— ليس المانيون سوى أناس كسائر البشر ، يجرى عليهم من نواميس الخير والشر ما يجرى على الآخرين ، بدون تفريق . فإذا كانت تصيبهم الأمراض ، أو الزلازل ، أو الفيضانات ؛ وإذا كان يجرى عليهم الموت ، أو الألم ، أو الخسارة ؛ وتتهدم بيوتهم ، أو تحترق زروعهم ، أو تنفق حيواناتهم بالطاعون ، أحياناً ، أو بفعل العناصر الطبيعية أحياناً أخرى ، فليس ثمت غرابة فى أن تصيبهم الحرب كذلك كما تصيب غيرهم .

وتوقف الإله الجبار لحظة ، وهو ينظر إلى الإلهتين ليرى وقع كلامه فى نفسيهما . فلما رآهما لا تحيران جواباً أمام هذا البرهان الظالم ، الذى لا يعتمد على شىء من العدالة والحق ، راح يقول متابعاً :

— إن واجبى ، أيتها الإلهتان الطيبتان ، أن أبقى دولاب

الشرور فى العالم فى حركة دائبة ، وأن أثير الحروب بين الشعوب ، والمنازعات بين الأفراد والجماعات ؛ كما أن واجبكما رعاية الخير والجمال والحب . إن عملكما هذا يجعلكما إلهتين محبوبتين لدى الجميع ، أما أنا فعملى يجعلنى محتقراً لديهم . ولكنكما لا تجهلان أن عملكما وعملى معاً ضروريان لتتعادل كفتا الخير والشر فى الأرض . . .

فقالت ڤينوس :

ـ إن عملنا يزرع العبادة والحب للآلهة جميعها فى نفوس أهل الأرض جميعاً ؛ أما أنت فإنك تقتل فى قلوبهم كل خير ، وكل فضيلة ، وكل جمال ، وكل معنى للعبادة .

فعاد مارس يبتسم من جديد ابتسامته الصارمة الساخرة ، وقال :

ـ أرجو أن تطمئن الإلهتان إلى أن الاختبار الطويل قد أثبت لى أن أعمالى فى الأرض تزيد من عبادة الناس لنا . . . إن أهل الأرض يلجأون إلى التعلق بنا ، والرهبة منا ، فى أوقات الشرور والمصائب الكبيرة ، أكثر مما يفكرون بنا فى الرخاء والخير .

فتمتمت سيريس لنفسها تقول :

ـ شتان بين العبادة التى يقودها الحب ، والعبادة التى تسوقها سياط الخوف .

أما ڤينوس فقد تمتمت لنفسها أيضاً تقول :

— إن صلاة قصيرة ، أو ركعة واحدة ، مع الفرح والحب ، خير من ألف صلاة مع الخوف والحاجة !

ومضت الإلهتان من حضرة جوبيتر ومارس تجرّان خيبتهما وآلامهما الشديدة .

ولما رأتا أن ضراعتهما لم تفد شيئاً ، لم يسعهما إلا أن تنذرا القرية بما بدا على تماثيلهما فى المعبد من الكآبة ، وبالدموع التى ترقرقت فى محاجرهما .

وفى الليل ، بعد أن استسلم أهل القرية إلى النوم ، هطل من السماء مطر غير قليل ، ازداد له عجبهم وتشاؤمهم ، وقوى إحساسهم بالخطر الداهم ؛ إنهم لم يعرفوا قط أن المطر ينزل بهذا الشكل فى موسم الحصاد . . . ولكنهم حائرون ، لا يعرفون نوع الخطر الذى سينزل بهم ، ولا كيف يتقّونه أو يمنعون وقوعه .

ولكنهم لم يعلموا أن المطر لم يكن سوى دموع الإلهتين الطيبتين ، ذرفتاها من قلب الغيوم ، لعجزهما عن منع الشر الكبير المرتقب .

* * *

٩

لم يكن أهل مانيا يعلمون أن جيرانهم من شبان جونو ، الذين كانوا يزورونهم كل يوم ، طوال الأسبوع المنصرم ، إنما كانوا يجيئون لكى يتجولوا فى حقولهم وبساتينهم ، وفى مراعيهم وحظائر مواشيهم ، وفى مرابى دواجنهم ، فيعرفوا كل شيء عنهم ، وينقلوا أخبار الخصب والثروة التى لديهم إلى شيوخ جونو وزعمائها .

لقد بلغ حسد الجونيين لهم أقصى مداه ؛ فإن مانيا تعيش فى سعادة هم محرومون منها. إنها أرض لا تعرف البخل ، فى حين أن أرضهم لا تعرف العطاء ، ولم تدر لهم قط ما يمنع عنهم الحاجة إلى الآخرين . وصحيح أن هذا ليس ذنب المانيين ، فما يمكن أن تمنح الأرض خيرها لمن لا يمنحها عرق جبينه ، ونشاط ساعديه وقوتهما ، كما يفعل المانيون . ولكن حرمان جونو — مهما يكن سببه — يدفع أهلها إلى الحسد القاتل لجيرانهم .

وتأكد لدى الجونيين أن حقول مانيا قد جادت فى هذا الموسم بسخاء عظيم . فاجتمع كبارهم يتشاورون . . . والكبار — فى الغالب — لا يجتمعون إلا ليقرروا شراً للآخرين ، أو ليدفعوا عن بلدهم شراً من الآخرين . ولكن كبار الجونيين لم يكونوا

يخشون شرًّا من أحد؛ فهم إذن يجتمعون ليقرروا شرًّا لقوم مسالمين .

قال أحد شيوخهم فى أول اجتماع عقدوه :

ــ لقد طالت البطالة على شباننا ، وليس من الممكن أن نظل نعانى الفقر والبطالة ، فى حين يرتع جيراننا المانيون فى الخير ، ويغرقون فى الخمور . فلا بد من تفريج ضائقتنا بالاستيلاء على غلات مانيا فى موسمها هذا .

وقال شيخ آخر :

ــ بل الأفضل أن نستولى على القرية كلها ، ونجعل أهلها يصبحون خدماً لنا ، يفلحون حقولهم لكى يقدموا خيراتها لنا ، فنضمن بذلك شبعاً دائماً ، ليس لسنة واحدة ، أو لموسم واحد ، بل طول السنين .

فنهض شيخ ثالث يقول :

ــ ولكن كيف نعتدى على جيراننا بدون ذنب ، وبغير مبرر ؟ فلنرسل إليهم رسلا يعرضون عليهم حاجتنا إلى نصيب كاف من غلات موسمهم ، وننتظر ما يكون من جوابهم ، ومن مساعدتهم لنا .

وإذا بأحدهم يرفع صوته محتدًّا ويقول :

ــ نحن جميعاً نعرف أن أهل مانيا لا يفرطون بثمرات أتعابهم وجهودهم بسهولة . فمن العبث أن نستشيرهم . ثم إنه

من العار علينا أن نقبل من أيديهم مساعدة أو إحساناً ؛ ومن الخير والفخر لنا أن ننال ما نريده قسراً واقتداراً . والحياة كفاح فى سبيل البقاء ، والحق فيها للقوة وحدها ، فهى التى تقرر مصير كل شىء فى الوجود .

وتوالت اجتماعاتهم ثلاثة أيام متعاقبة ، حتى انتهوا من رسم الخطة للاستيلاء على مانيا ، واستغلال خيرات مواسمها لأنفسهم ؛ فإن رضى أهلها بمقاسمتهم الغلال والثمار وإنتاج المواشى والدواجن ، قبلوا بذلك وصالحوهم عليه ، وإلا فليس من سبيل سوى التدمير والنهب والحرب .

وكان مارس – الإله الضبابى – هو الذى ينظم اجتماعاتهم بيده السحرية غير المنظورة ، وهو الذى يسيطر بإرادته على أفكارهم وإراداتهم ، ويزين لهم الشر على اعتبار أنه سيكسب قريتهم مجداً وغنى ، ويمنحهم السيطرة على جيرانهم ، وعلى كل ما تملك أيديهم من خير ؛ ويوهمهم أن السلام الذى يعيشون فيه مع جيرانهم لا يفيدهم شيئاً ، ما دام جيرانهم يعيشون فى رفاهية غامرة ، فى حين يعيشون هم على مايبيعه إياهم جيرانهم من فضلات خيرهم .

فالسلام مع الحاجة ذل ، ولابد من محو الذل – ولو ظلماً واعتداء لا مبرر لهما – بحرب يتمكن أهل جونو ، بكسبها ، من السيطرة على كل ما تملك جارتهم مانيا من مصادر الثروة .

لقد قرر مارس أن يبدأ عمله . . . فترك الغيوم وعليه خوذته ودرعه ، وبيده سيفه القصير العريض ذو الحدين ، واتخذ من قرية جونو مسرحاً لنشاطه ، فهو فى السوق ، وفى بيوت الشيوخ والزعماء ، وفى كل مكان فى القرية . . . يوسوس إلى هذا وذاك ، ويثير الطمع والحسد وحب الاستغلال والسيطرة فى نفوس الرجال والنساء ، والشيوخ والشبان ؛ فإذا القرية كلها رأى واحد ، وتصميم واحد : « الاستيلاء على مانيا وخيرات موسمها »

لقد نجح مارس . . .

وهذا وفد مؤلف من ثلاثة شيوخ يغادر جونو إلى مانيا ، وكل مهمتهم أن يعرضوا على المانيين مقاسمتهم غلات موسمهم ، إن سلماً وإن حرباً .

ونزل الوفد فى بيت الشيخ ساڤيو ، والد أنطونيو ، الذى استقبلهم بما عرف عنه من البشاشة والترحيب ، وأخذ يباسطهم فى الحديث ، ليعرف بغيتهم .

فما كاد يستقر بهم المقام قليلا ، حتى تكلم أحدهم فقال :

ـ لقد جئنا ، يا سيدى الشيخ الجليل ، فى مهمة عن جيرانكم الجونيين ، لما نعرفه فى قريتكم من الكرم وطيب النفوس . فنرجو أن تبعث فى طلب بعض كبار أهل القرية ، لنتحدث إليك وإليهم فى مهمتنا .

فبدت على وجه الشيخ سافيو علامات الاهتمام الكثير ، وأجاب قائلا :

ــ إذا كان الأمر ذا خطورة ، فسندعوهم حالا .

فقال الآخر :

ــ نعم ، إنه لذو خطورة بالغة .

فنادى الشيخ ابنه أنطونيو ــ وكان قد تخلف فى القرية ذلك الصباح ــ وطلب إليه أن يمضى حالا لدعوة ثلاثة من شيوخ القرية ، سماهم له ، وأمره بأن يسرع فى إحضارهم .

فانطلق أنطونيو لدعوة الشيوخ ، فى حين راح سافيو يحادث ضيوفه ، فقال :

ــ هل أستطيع أن أعرف غرض السادة الأجلاء قبل وصول المدعوين ، فقد تكون معرفتى إياه سبباً فى تسهيل قضائه ؟!

فأجاب الشيخ الجونى :

ــ أنت تعرف ، يا شيخ سافيو ، أن قريتنا لا تنبت لنا شيئاً ، فنحن فى حاجة دائمة إلى ما يجيئنا منكم ، لأن قريتكم لا تعرف الشحّ والجدب مطلقاً . وليس من الممكن أن نموت نحن ، وأنتم هنا تعيشون فى رفاهية دائمة . ولذلك جئناكم موفدين عن جونو ، نرجو أن تقاسموا إخوانكم الجونيين غلال أرضكم ، فتستمر صداقتنا ومحبتنا لكم . إن هذا واجب تفرضه

الإنسانية عليكم ؛ ولعلكم لن تروا فيه ما يسوء ، أو ما يصعب عليكم قبوله . . .

وكان سافيو يحملق فى وجه المتحدث فى أثناء كلامه ، ثم يغض من بصره ويبتسم بإشفاق تارة ، وبمرارة أخرى . وتدافع الغضب فى صدره ، ولكنه جاهد ليكتمه دون الانفجار . فلما انتهى الشيخ الجونى من حديثه ، كان سافيو قد شعر شعوراً أكيداً بصدق النذير المشؤوم الذى رأته القرية كلها فى المعبد قبل أسبوع . . . إن هذا الوفد لهو بداية العاصفة . . .

وراعته هذه الحقيقة ، ولكنه أجاب على كلام الشيخ الجونى بقوله :

ـ ولكنك تعلم ، ويعلم الجونيون جميعهم ، أن أرضنا إنما تعيد إلينا ، بخصبها ، العرق الذى نسكبه من جسومنا فى شقوق التراب ؛ وأن أرضكم لا يمكنها أن تقدم لكم شيئاً ، لأنكم لم تمنحوها منكم ما يمكنها أن ترده إليكم . فهل من العدالة ، فى نظركم ، أن يسطو الجدجد الكسلان على غذاء النملة النشيطة، فى الشتاء ، لأنها عرفت كيف تجمع قوتها بدأب مخلص ، حين كان هو منصرفاً إلى غنائه وخموله طوال الصيف ؟ ! إنكم يا سيدى تحتقرون الأرض والعمل، وقد أخفقت أنا وأخفق ولدى فى حملكم على الاقتداء بنا فى حبهما ؛ ومن يحتقر الأرض تبادله الاحتقار ، ثم تطويه فى ترابها للدود والعفن بعد حين ! ..

فاحتد الشيخ الجونى لهذه اللهجة التأنيبية ، وأجاب :

ــ نحن لم نأت لكى نهان فى قريتكم ، وفى بيت زعيمها الأكبر ، ولا لنسمع عظات ؛ وإنما جئنا لكى نبلغكم رغبة الجونيين . ونأمل أن لا تذهب زيارتنا عبثاً ! . . .

فأطرق سافيو لحظة ، وأدرك أن الشر سيطير من هنا . فأراد معالجة الموقف بحكمة . ثم رفع رأسه وقال للضيوف :

ــ معذرة أيها السادة عما سأقول . . . ما دام هذا غرضكم ، فأنا أرى من الخير أن تنصرفوا الآن وتتركونى وحدى أبحث الأمر مع شيوخنا . وستمهلوننا أياماً ، لأن الأمر جد خطير ، لا يمكن القطع فيه بسرعة ؛ وأخشى إذا شاع أمركم فى القرية قبل أن تنصرفوا ، أن لا أستطيع حمايتكم ؛ فالمانى يحب عرقه وجناه ، وهو يثور إذا اعتدى عليهما معتد . ولابد من أخذ الأمور بالحكمة .

فقال الشيخ الآخر وهو ينهض من مجلسه هو ورفيقاه :

ــ لك ما تشاء ؛ وسننتظر جوابكم بغير إبطاء . إن الجونيين فى حاجة ماسة إلى غلات مواسمكم ، وهم لا يستطيعون أن ينتظروا طويلا . . . تذكروا هذا جيداً ! . . ولا تنسوا أننا جيران . . . ومن الخير أن لا يقع بيننا وبينكم ما يسوء !

ثم خرج الشيوخ الجونيون ، فشيعهم سافيو بنظرة طويلة مليئة بالاشمئزاز والاحتقار .

ولما وصل أنطونيو وشيوخ القرية لم يجدوهم ؛ ولكنهم وجدوا الشيخ سافيو على غير ما اعتادوا منه ، فقد كان مطرقاً يفكر ، وعلى وجهه سحائب من الغم والأسى ، ولكن فى عينيه بريقاً من التحدى العنيف .

وتركهم الشيخ يجلسون ، ثم صرف أنطونيو ، وأخذ يحدثهم بحديث الشيوخ الجونيين . ثم طلب أن يعقدوا فى غد اجتماعاً كبيراً فى بيته ، يحضره الكثيرون من أهل القرية للمشاورة والبحث .

* * *

أما الشيوخ الجونيون فقد عادوا إلى قريتهم ، وجمعوا مجالس القرية ، وحدثوهم بما جرى بينهم وبين الشيخ سافيو ، شيخ مانيا وزعيمها . ولكنهم أبدوا اقتناعهم التام بأن المانيين لن يرضخوا لشىء من طلباتهم ، وأن مصلحة جونو تقضى بأن يتسلموا هم زمام المبادرة والمباغتة . فتقرر فى ذلك المجلس أن يقوم شبان جونو بحملة تدمير إرهابية ، على مانيا من تلك الساعة نفسها ، وأن يبدأوا بنهب ما يبيعه شبان مانيا وفتياتها فى أسواقهم .

وقبل أن ينفض المجلس ، كان الشبان الجونيون قد انتشروا فى الأسواق ، ينهبون كل ما كان يبيعه المانيون ، ويحطمون الأوعية التى يحملون فيها مبيعاتهم . فبادر المانيون إلى الفرار

مذعورين من هذه الحملة غير المنتظرة .

ومضى الجونيون يلاحقونهم ، ويعتدون بالأقوال والمحاولات الوقحة البذيئة على الفتيات . فلم تلبث أن دارت بينهم وبين المانيين معارك عنيفة بالحجارةِ والعصى والأيدى . فحدثت لهم الخدوش ، وسالت الدماء من وجوههم ورؤوسهم ، وأصيب عدد من الجانبين إصابات مختلفة ، ولكن لم يكن بينها أية إصابة بليغة خطرة .

وكان بين المصابين أخو لونا ، الذى كان قد رافقها فى ذلك النهار إلى السوق . وكانت إصابته بضربة عصا على أحد ذراعيه ، عطّلت قدرته على الحركة ، ومعها شج فى رأسه غير عميق .

لقد كان الجونيون أوفر عدداً ، وأكثر استعداداً من المانيين ؛ فلم يكن غريباً أن يتغلبوا عليهم ، ويخرجوهم من قريتهم فى حالة سيئة من الجراح والذعر .

فلما وصل هؤلاء إلى مانيا على هذه الحالة ، دب الغضب فى نفوس الجميع ، وامتلأ بيت الشيخ سافيو بالرجال والنساء ، وكلهم يرجون أن يشير عليهم بما يجب أن يعملوا ، وأن يبدأ هو بعمل شىء ينقذ الموقف . فهدأ الشيخ الطيب ثائرتهم ، وطلب إليهم أن ينتظروا صباح الغد ، ريثما ينتهى الاجتماع المنتظر .

وكان أنطونيو يعرف أن لونا كانت فى السوق فى ذلك

النهار ، فأسرع إليها ليسألها عما وقع لها ولرفاقها ؛ وحين رأى أخاها جريحاً متألماً كاد يطير صوابه . وراح يوزع نظراته المتسائلة الغضبى بينه وبين لونا . فحدثته لونا بكل شيء ، وهي ما تزال بادية الفزع من أثر المفاجأة الاعتدائية البغيضة ، قالت :

ــ لقد كان الجونيون يعملون بدون تفكير ولا وعي . ولقد هبوا علينا كالعاصفة الساحقة ، بعد أن كان الجو صحواً لا ينذر بشيء . وقبل أن نتمكن من الهرب أو الاستعداد لمقابلة هجومهم ، كانت أيديهم تنهب غلالنا ومبيعاتنا ، وأرجلهم تحطم سلالنا وأوعيتنا ؛ والذي كان يحاول أن يمنعهم من نهب ما معه ، أو يدافع عن نفسه ، كانوا ينهالون عليه بالضرب حتى ينجو بنفسه .

فسألها :

ــ وأنتِ ؟ هل أصابك شيء ؟

فقالت :

ــ كلا ، لأنني تخليت لهم حالا عما معي لأنجو بنفسي من أذاهم . ولكن أحدهم قال لي كلاماً بذيئاً ملأ نفسي اشمئزازاً ، وآخر قال لي ساخراً وهو يحطم سلتي : « غداً نلتقي في مانيا ، فقولي لخطيبك إنني أرجو أن تكوني حصتي من الغنيمة » ! . . .

فانتفض أنطونيو من شدة الغضب ، وقال بحدة :
ـ النذل ؟ ! ليتني أعرفه ، فأعلمه كيف يتأدب في ما يقول !

* * *

وأوى الشيخ سافيو إلى فراشه ، ولكنه لم يستطع أن يغمض عينيه ، وأبى الكرى أن يراود أجفانه المثقلة بجهاد السنين . لقد كان بقلبه الكبير يفكر في هذه المصائب التي تتوارد على قريته الحبيبة ، وهي تستعد لموسم الحصاد ، الذي كان عظيم الخصب والإغلال . إن جماعته قوم يعيشون على السلام مع جميع الناس ؛ فلماذا يأبى الآخرون أن يتركوهم في سلامهم هذا ؟

وهذا الموسم ، إذا تلف محصوله كانت نكبة القرية فيه عظيمة ، وأحدثت لديهم مجاعة مروعة ، ستذهب ببهجتهم وأملهم واستبشارهم ، وقد تفقدهم الرغبة في مواصلة العمل في الحقول ، وتقتل إيمانهم بالأرض ، وبلذة الحياة .

ولكن لماذا يعتدي عليهم الجونيون بهذا الشكل المفاجئ ؟ ألم يرسلوا وفدهم للمفاوضة ؟ وقد وعدهم هو بأن يرد لهم الجواب غداً ، بعد أن يجتمع برؤساء قريته ويتبادل معهم المشورة ؟ !

أيمكن أن تتجرد نفوس الناس من الشرف ومن النبل إلى هذا الحد ؟ !

إنه لشديد الخشية من أن تنساق قريته إلى حرب مجرمة ، تُفقدها الكثير من الأيدى العاملة فى الحقول ، وتزرع الكآبة المرة فى كثير من بيوتها ؛ وهى فى أشد الحاجة إلى استمرار السلام مع نفسها ومع الآخرين . فكيف يمكنه أن يحول دون وقوع الكارثة ؟

أيمكن أن تذهب جهود العمر كله من العمل والجد ، فى لحظات طيش وأطماع عمياء من أناس خاملين مجرمين ؟ !

ليته يعرف ماذا يخبئ الجونيون للغد من غدرات جديدة ، ومن نوايا عدوانية دنيئة !

ما أطول هذا الليل ! لكأنه لا يريد أن ينبلج عن نهار ! . . . ليت الصبح يطلع حالا ، فيتشاور مع أهل قريته فى دفع المحذور !

إن ضميره لمثقل بالهموم ؛ وإنه لعلى استعداد لأية تضحية ذاتية ، لو كانت تضحيته تضمن سلام القرية واستمرار رخائها وسعادتها . . .

ولكن أيمكنه دفع المحذور ، ما دام الجونيون يتعمدون وقوعه ، ويصرون عليه ؟ !

إن مقابلة الشر بالشر ، فضيلة عظيمة ، حين لا يكون منها بد . والدفاع عن النفس والأرض والرزق والعيال ، واجب لا يمكن العبث به أو النكوص عنه .

فلتقض الآلهة إذن بما تشاء ، فستدافع مانيا عن نفسها ببطولة ، دون اعتداء جيرانها الغادرين .

* * *

ولم ينم رجل فى مانيا ، فقد أعدّوا سلاحهم ، وانتظروا داخل بيوتهم ما قد يقوم به الجونيون من مباغتات جديدة فى وسط القرية . ولم تذهب ظنونهم إلى أبعد من هذا .

فلما طلع الصباح ، ومضوا إلى حقولهم كعادتهم فى كل صباح ، كانت دهشتهم أعظم من أن يبلغ التصور مداها . . .

لقد جاء الجونيون فى الليل ، فحصدوا غير قليل من زروعهم ، وقطعوا وأتلفوا عدداً من أشجار بساتينهم البعيدة . والمواشى التى كانت تبيت بخارج القرية ، لم يظهر لها ولا لرعاتها أى أثر . . .

١٠

لم يكن من الممكن بعد هذه الحوادث الإجرامية المتتابعة ، أن تسكت القرية عن ثأرها . ولذلك لم يقتصر الاجتماع ، فى بيت الشيخ سافيو ، على شيوخ القرية وحدهم ، بل اشترك فيه عدد كبير من الشبان أيضاً . وكان الغضب بالغاً أشده من نفوس الجميع ؛ فلم يعد فى الإمكان أن يعرفوا السلام والهدوء ، قبل أن ينتقموا لما أصابهم .

قال الشيخ سافيو بصوت متهدج بالغضب والشيخوخة معاً :

— إن جيراننا لم يكونوا شرفاء فى معاملتنا ، فقد جاؤوا يطلبون منا أن نقاسمهم خيرات أرضنا بدون حق ؛ ولم يكتفوا بالطلب ، بل أنذرونا بكل جسارة ووقاحة ، كأنهم سادة ونحن عبيد لهم . ثم لم يكتفوا بالإنذار ، بل ضربوا عدداً من شباننا وفتياتنا فى قريتهم بدون ذنب ، ونهبوا ما معهم . وفى الليل جاؤوا لصوصاً إلى حقولنا ، يحصدونها ويتلفونها ؛ وبذلك سرقوا عرقنا وتعبنا .

إننا نحب السلام ، ونحرص عليه كل الحرص . وقد عشنا السنين الطوال فى سلام مع الجميع . ولكن إذا اعتدى الآخرون على سلامنا ، فإن صبرنا وحسن نياتنا لا ينقذان

أرضنا ، ولا يضمنان بقاءنا وسلامتنا .

فقاطعه شيخ آخر قائلا :

— أرى أن نرسل وفداً منا إلى الجونيين ، يطلب إليهم رد المسلوبات ، ودفع التعويض عن الخسارة وعن الاعتداء والإهانة . إن الحرب جريمة فظيعة ، والذى يسببها يسىء إلى الآلهة وإلى البشرية ، وكذلك الذى يستطيع تجنبها بحكمة ولا يتجنبها ؛ لأنها مأساة مروعة ، تلد مآسى وشروراً لا حصر لها . فلنمنع نحن توالد المآسى عن أنفسنا وعن سوانا ، بالمساعى السلمية .

فأجاب سافيو :

— لو كانت المساعى السلمية تستطيع أن تأتى بجدوى ، لتوسلنا بها إلى حفظ السلام بيننا وبين جيراننا المعتدين . ولكنك تعلم أن رجال جونو يعيش أغلبهم على ما يكسبونه من ارتزاقهم بالجندية والتطوع أيام الحروب ، وبمزاولة أعمال الخدمة فى المدن ، إذا وجدت ؛ أما فى قريتهم فليس لهم عمل ولا مصدر كسب . ولقد مضت عليهم مدة طويلة لم يشتركوا فيها بحرب ، فهم فى بطالة متواصلة ، والبطالة تدفع دائماً إلى الشر . ولن تجدى مساعينا السلمية لديهم ، بل لعلها ستبرر قيامهم باعتداءات أخرى ، اعتقاداً منهم بضعفنا وخوفنا منهم .

فانتفض أنطونيو ، وهب من مكانه واقفاً ، وقال :

— ليعذرنى والدى الجليل ، ولتغفروا لى أيها السادة تدخلى

فى الحديث بين الشيوخ الأجلاء من قومى . ليس من حقى أن أتطفل على مجلسكم الكريم ، أيها السادة ؛ ولكننى إنسان منكم ، بذل نشاطه وشبابه مثلكم فى خدمة الأرض . ولقد عشنا طويلا فى سلام مع الأرض ، فمنحناها منا كل سخاء ، ومنحتنا خيرها بكل سخاء أيضاً . واليوم نجد جيراننا يعتدون علينا وعلى أرضنا ؛ فإن كنا نحن نصفح عن إساءتهم إلى أفراد منا ، فإن الأرض لن تصفح عن اعتدائهم عليها ؛ فقد سُلبت خيراتها بأيد لم تسكب فيها قطرة عرق . ولهذا لن يستريح قلبها الطيب الأمين ، قبل أن ننتقم لها من أعدائها اللصوص ، وإلا فلسنا جديرين بها ولا بخيراتها .

ونهض شاب آخر متحمساً ، فقال :

ـ إن الحرب عندما يشنها معتد حسود طامع ، تكون جريمة عظيمة ؛ ولكنها لا يمكن أن تكون جريمة فى مثل حالتنا ، نحن المدافعين عن أرضنا وعن أنفسنا ، أمام اعتداء لصوص طامعين بنا ، وإنما تكون استرداداً لحقنا المغصوب ، ولكرامتنا المهانة .

ووقف أحد الشيوخ محتداً ، وقال :

ـ هذا حق ؛ فإن الحرب جريمة وواجب فى آن واحد : إنها جريمة من المعتدى الغاصب ، الذى يسوقه الحسد والطمع وحب السيادة والاستغلال ؛ ولكنها واجب مقدس على الذى

تهب أرضه وتهان عزته ، وفى حالتنا الآن ليس لنا سوى القتال ، لأن جيراننا لم يمهلونا حتى نرد على مفاوضة وفدهم ، وما أراهم اليوم إلا عائدين إلينا فى اعتداء جديد للنهب وللقتال ، فلنستعد لهم الاستعداداللازم، قبل أن يفاجئونا بغدر جديد ، فتكون رغبتنا فى السلام شرًّا نقترفه نحن فى أنفسنا ، ونندم عليه طويلا حين لا تفيد ندامتنا شيئاً .

فتعالت الأصوات من كل فم ولسان :

ــ فلنستعد ! فلنستعد !

* * *

انفض الاجتماع ، فمضى الشبان يحملون السلاح ويقفون على استعداد . وأسرعت جماعة منهم إلى أطراف القرية يترصدون غدرات العدو ، ريثما يستكمل رجال القرية تسلحهم . ومضت النساء يهيئن ما يلزمهم من طعام وعتاد .

أربعمائة رجل ، من سن السادسة عشرة إلى الخامسة والستين ، لم يبق منهم واحد لم يحمل سلاحه فى تلك الساعة .

لقد أصبحت مانيا الوديعة المسالمة الآمنة ، فى حالة حرب رهيبة ، لم يكن لها يد فيها . والحقول التى كانت إلى أمس طافحة بالسنابل الذهبية ، والثمار الزاهية ، والتى كانت مسرحاً ومقيلا للرجال والنساء ؛ والروابى التى كانت ملأى بالأغنام والأبقار ، ترعى آمنة مطمئنة ؛ أقفرت كلها إلا من بعض

البوم والغربان وبنات آوى ، تسرح فيها مذعورة مروّعة .

وعلى غيمة كبيرة سوداء كانت تقف عربة كبيرة من نار ، ينتصب فى وسطها إله جبار ، ذو لحية سوداء عريضة ، وجسم ضخم هائل ؛ على رأسه خوذة لامعة ، ويطوّق جسمه ثوب فولاذى قصير مزرد ، لا يصل إلى ما دون الركبتين ؛ وبيده سيف عريض قصير ذو حدين ، يرسل الشرر والبريق . وكانت تبدو على أساريره علائم الرضى والسعادة . ولم يبق إلا أن يضرب الغيوم بسيفه ، لتبدأ الصواعق والمآسى الدموية ، فى القرية التى اعتادت الدعة والسلام .

وقبل أن تتربع الشمس فى وسط السماء ، انطلقت رعود وبروق ، ونزلت صاعقة كبيرة ، أتت على مساحات واسعة من الحدائق والحقول ، وأصابت شرارات منها بعض أكواخ القرية المتطرفة ، وتلك التى تنتثر وسط الحقول ، فأحرقتها بمن كان فى بعضها من النساء والشيوخ والأطفال .

لقد تحرك سيف مارس ، فزال السلام ، وتلاشى الخير والبركة من أرض مانيا ، وآن للدماء أن تتفجر لتغمر أرضها بدلا من العرق الغنى الجميل .

وها هى ذى جماعات من الجونيين مقبلة . . . مئات من الرجال ، بأيديهم سهام على أهبة الانطلاق ، وسيوف مسلولة مهيأة للضرب ، ورماح مشرعة على أهبة الطعن .

ورآهم الطلائع المترصدون ، وهم يقبلون من بعيد ، مثيرين الغبار من وقع أقدامهم . فأرسلوا رسولا إلى القرية ليجمع الرجال لملاقاتهم . فمضى الرسول يركض بأقصى قوته ، حتى وصل إلى القرية وهو يلوح بيديه ، وينادى بأعلى صوته داعياً الرجال إلى الخروج لمقابلة المهاجمين .

لقد وقعت الواقعة إذن ، ولم يعد فى وسع أحد أن يفعل شيئاً لتلافيها .

فخف الرجال مسرعين إلى حيث كان الغبار الكثيف يملأ الفضاء ، تثيره أقدام الجونيين القادمين للقتال . أما الشيوخ فقد اجتمعوا جميعهم فى المعبد يترقبون أنباء القتال على أحر من الجمر ، ويدعون جوبيتر إلى نصرتهم على أعدائهم الغادرين.

وكاد يلتقى الجمعان وجهاً إلى وجه ، فما عاد يفصل بينهما إلا مسافة قصيرة تكفى لإيصال الصوت القوى العالى . وارتفع إذ ذاك صوت من الفريق الجونى ينادى :

ــ أيها المانيون ! خير لكم أن تسلموا لنا قريتكم وحقولكم .. إننا رجال صناعتنا الحروب ، ولن نعرف فيكم الرحمة إذا أبيتم إلا أن نظل محرومين من خيرات أرضكم إلى الأبد . ولقد صممنا على قتالكم ، والاستيلاء على كل ما لديكم عنوة ، إلا إذا حكمتم عقولكم ، وسلمتم بما نريد منكم .

فأجابه صوت من الجانب المانى يقول :

ـ لن تنالوا شيئاً من أرضنا ، إلا إذا مشيتم على جثثنا . فافعلوا ما تشاؤون !

فردّ الصوت الأول يقول :

ـ إذن لا تلوموا غير أنفسكم . . . لقد أنذرناكم ، فخذوا حذركم . . .

وانقضّ الفريقان كل منهما على الآخر . وكان أنطونيو يقود الفريق المانى . . . أنطونيو الذى عاد من روما ناقماً على سادة الرومان الذين يعيشون بروح القتل والقتال . . . وناقماً على الحروب . . . هو الآن قائد قريته فى القتال ، وهو الذى يطوف بالمحاربين محمّساً ومحرّضاً ونافخاً فيهم البسالة والإقدام .

وكان القتال عنيفاً ضارياً لا رحمة فيه ، وأصوات المتحاربين تصل إلى أصوات الباقين فى القرية من الشيوخ والنساء الذين لا قدرة لهم على الاشتراك فى القتال ، والذين ظلوا البيوت للعناية بالجرحى الذين تعود بهم الفتيات من ميدان المعركة .

لقد كان الجونيون أكثر تمرساً بالحروب ، وكانوا أقسى قلوباً من المانيين ، وكان الطمع يعصف بنفوسهم ، فيزيّن لهم ارتكاب القتل والتدمير فى سبيل الحصول على خيرات المانيين ، أو ـ على الأصح ـ على ما بقى من خيراتهم ، ويبرّر لهم إقدامهم على هذا الاعتداء .

ولكن المانيين كانوا يدافعون عن حياتهم ، وعن أعصابهم

ودمائهم وعرقهم التى زرعوها فى تراب أرضهم ؛ فكان مجرد تصورهم أن جهودهم الطويلة ستذهب إلى أيدى سواهم بدون تعب ، يثير الدماء فى عروقهم ، ويمنحهم من القوة والضراوة ما لا تستطيع شراسة المهاجمين وضراوتهم الصمود أمامه .

ودار فى خاطر أنطونيو فكر مرعب جداً . . .

لو انتصر الجونيون فى هذا القتال ، فسيصبح المانيون عبيداً لهم ، يفلحون الأرض بدون أجر ، ليقدموا كل جناها لهم. عبيداً . . . عبيداً . . . تماماً كأولئك التعساء الذين كان مرآهم فى روما يجلد أحاسيسه بسياط قاسية . . .

كان هذا الخاطر يثيره إلى أبعد مدى . فإذا صيحاته فى رجاله تلهبهم ، فيندفعون على أعدائهم كالصواعق المحرقة .

لقد أبدى المانيون من ضروب البسالة والبراعة فى فنون القتال ، ما أدهش الجونيين ، وجعلهم بعد ساعات من المعركة يوقنون بأن ما جاؤوا لأجله ليس أمراً سهلا ، وأنهم أمام قلوب من الفولاذ ، وخصوم أبطال ، يدافعون عن أرضهم دفاعاً عنيداً هائلا لا يلين .

وكلما اشتد القتال ، كان المانيون يزدادون حماسة وضراوة ، وتظهر فى صفوفهم بطولات يكاد يطير لها صواب الجونيين .

وحينما أقبل الليل — ومن بين الغبار الذى يملأ الفضاء أشرق القمر يغمر بنوره الكئيب الجبال والسهول — ازدادت بسالة

المانيين ، وصمموا على أن يبذلوا كل جهد ممكن ، ويغامروا بكل جسارة ، ليعيدوا الجونيين المغترّين بشراستهم ومرانهم على الحروب ، مدحورين خائبين إلى قريتهم .

واستمر القتال كذلك طول الليل ، وأنين الجرحى الساقطين على الأرض يختلط بهياج المتحاربين ؛ فيتردد صداهما فى الجبال والأودية ، فتفزع له بنات آوى وطيور البوم ، التى لم تألف قبل هذه الليلة غير الهدوء والطمأنينة .

وقبل أن ينبلج الفجر ، كان الجونيون يفرون مذعورين إلى قريتهم كالأرانب المروعة ، وهم يحملون جرحاهم . وفى الميدان تركوا جثث الصرعى الذين فتكت بهم بسالة المانيين .

وبينما راحت فتيات مانيا ينقلن الجرحى والقتلى من إخوانهن إلى القرية للعناية بهم ، كان الرجال المحاربون يطاردون أعداءهم إلى قلب جونو ، ويعملون فيهم القتل ، لأن صدورهم كانت تشتعل بالثأر اشتعالا .

وفى قلب القرية راحوا يشفون ثأرهم بقتل كل من يجدونه أمامهم من الجونيين : الشيوخ والشبان على السواء ؛ لأن كل جونى كان يعتبر مشتركاً فى الاعتداء عليهم ؛ وكل معتد يجب أن ينال جزاء اعتدائه . أما النساء والأطفال فلم تمتد إلى أحد منهم يد بسوء .

والمواشى التى سرقها الجونيون منهم فى الليلة الماضية ،

عاد المانيون يسوقون أمامهم إلى قريتهم ما وجدوه منها ، بعد أن دمروا الحظائر والأكواخ التى كانت مخبوءة فيها .

وعند الصباح كان المانيون المحاربون يعودون إلى قريتهم مع ما استرجعوه من مواشيهم المسروقة ، وكانوا يحملون معهم خمسة من رفاقهم الجرحى ، وثلاث جثث .

والطريق التى اعتادت أن تستيقظ كل صباح ، على وقع أقدام الشبان والفتيات الذاهبين إلى جونو لبيع الثمار والألبان والحبوب ، وتغفو فى المساء على أغانى المرح والسعادة المنطلقة من حناجرهم ، عند عودتهم من جونو ؛ استيقظت اليوم على خيوط طويلة من الدماء المختلطة : دماء المعتدين يحملون صرعاهم إلى جونو ؛ ودماء المدافعين المنتقمين يعودون بصرعاهم إلى مانيا .

والتلال التى كانت على جانبى الطريق تردد أغانى الباعة السعداء ، وجمت اليوم ، فما يتردد فيها غير نعيب بومة عجوز عمياء تقف على حافة الطريق فوق صخرة عالية .

وحتى الوادى العريض ، الذى كانت الضفادع تزغرد فيه طول النهار ، خرست ضفادعه ، وتحول خريره ، كما تحول معه هدير الشلال ، إلى صلاة كئيبة صامتة ، ترتفع حرارتها فى الفجر والمساء ، بخاراً أبيض كدخان البخور ، يتصاعد صامتاً

خاشعاً إلى عرش جوبيتر ، طالباً عودة السلام إلى الأرض .

وفى ذلك اليوم دفنت مانيا عشرين من أبنائها المحاربين ، ومضت تعالج عدداً آخر غير قليل من الجرحى . ولكن بقية المحاربين لم يخلوا مشارف القرية من الطلائع ، المتناوبة على الرقابة والسهر ، ولم يرموا السلاح من أيديهم . فقد كانوا موقنين من أن أعداءهم سيعودون مرة أخرى ليثأروا لقتلاهم ، فقد سقط منهم فى القتال أكثر من أربعين قتيلا ، وأما الجرحى فقد زاد عددهم على الستين . ومنظر الدماء وذكرى القتلى سيبعثان فيهم رغبة الانتقام . فلا بد من أن يستمر استعداد المانيين للقائهم ، فما يدرون متى سيباغتهم الأعداء بغدرتهم التالية .

وخيم الحزن والدموع على القرية ، التى كان أهلها إلى ما قبل أسبوع واحد ، يخرجون الضحكات من أعماق قلوبهم ، ولا يعرفون غير المرح والدعة والسلام ؛ ففى كل بيت دموع وأحزان ، وفى كل قلب لوعة محرقة على قتيل أو جريح ، أو على حقل سليب . وكان الذى ينظر إلى الحقول والبساتين وقد خلت من بهجتها ، بلصوصية الجونيين وصواعق مارس ، وتحولت إلى تراب أجرد مصبوغ بالسواد ، يشعر بمرارة لا حد لها .

لقد خسرت القرية كل شيء ، وفقدت كل عزاء . وبعد أن كانت بملء الغبطة تغمر شقوق التراب بالعرق الحار ، فتمرع وتخصب ، أصبحت الآن تقدم لها القرابين من جثث الشباب ، وتسقيها بالدماء البريئة .

١١

مضى أسبوعان والقرية غارقة فى أحزانها ، والشبان لا يزالون فى سلاحهم ، مستعدين للفجاءات الغادرة ؛ والدموع لا تجفّ فى عيون النساء ؛ والشيوخ تدمى قلوبهم الطيبة بالمصائب التى قدر لهم أن تعمى بها عيون شيخوختهم بعد السلام الطويل ، ولكنهم لا يريدون أن يستسلموا إلى الأسى المحرق المميت ، بل راحوا يعملون ، محاولين بأيديهم المعروقة اليابسة أن يعيدوا إلى التراب الذى جفّ طراوة الحياة . فصرتَ تراهم يحملون المعاول ، ويجرون المحاريث ببطء ، مكافحين عوامل الشيخوخة الثقيلة ، يفتحون فى وجه الأرض اليابسة ثلوماً جديدة . ولكن الأرض المقطبة لم تكن تلين لأيديهم المرتجفة الواهنة . إنها فى حاجة إلى نشاط الشباب وعزمهم وعرقهم ؛ والشبان لا يستطيعون أن يعودوا إليها قبل أن يأمنوا غدر الأعداء .

وفى فجر أحد الأيام ، أبصر المراقبون فى الطرف الشرقى من القرية رجالا كثيرين قادمين إليهم ، وسمعوا قعقعة سلاح ، ورأوا غباراً كثيراً يثور من وطء أقدام القادمين . فأرسلوا رسولا يجمع المحاربين من القرية .

وما كاد يمضى وقت قصير ، حتى كانت أصوات القتال

الضارى تدوّى فى أسماع القرية كلها .

لقد أعد الجونيون عدتهم للانتقام المريع ، وللاستيلاء على مانيا مهما يكن الثمن . واستعانوا لذلك برجال مستأجرين من بعض القرى الأخرى ، ليخلفوا قتلى المعركة السابقة وجرحاها .

ولكن المانيين كانوا يدافعون عن أرضهم وعن أنفسهم ؛ والذى يدافع عن أرضه يستمد من حبها قوة وعزماً ؛ والذى يناضل عن نفسه وعن حريته وحقه ، يستمد منها جميعاً إيماناً يقهر الجيوش . والحق ، عند الذى يؤمن به بإخلاص ، هو القوة العظمى التى ليس فوقها قوة ؛ والمناضل دونه يستهين بكل تضحية مهما عظمت ، ويهزأ بالموت ، وبكل عذاب أليم .

واستمر القتال عنيفاً وحشياً طول النهار ، وطول الليل ، ثم طول اليوم التالى . ولم يتوقف سوى ساعة واحدة ، استطاع كل من الفريقين فى خلالها أن يرفع جثث القتلى والجرحى ، ويبتعد بها عن ميدان المعركة . وكان عددهم كبيراً من الجانبين .

ثم عادوا إلى القتال بضراوة وعنف طوال الليلة التالية . ثم طلع الفجر على مناظر مؤلمة جديدة ، من الجثث المتناثرة على الأرض بلا حياة ، ومن الدماء التى تؤلف فى التراب بركاً عديدة ، ومن الجراح التى تنزف بغزارة .

لقد كانت مجزرة لم ترحم أحداً ، ولم ينج منها سوى

الأقلّين ؛ فئات الرجال المهاجمين لم يعد منهم مع الفجر إلى جونو غير عشرات ، لعلها لا تصل إلى مئة رجل ، وقد أعماهم الظلام ، وما عانوه من ضراوة القتال ، عن معرفة الحقيقة التى تركوها وراءهم . فإن المانيين أيضاً لم يبق منهم فى الميدان سوى عدد ضئيل ، ما كانوا يطيقون قتالا ؛ فلو صمد الجونيون للقتال إلى الصباح ، لاستسلم لهم هذا العدد الباقى من المانيين ، ولأصبحت مانيا بعد ذلك غنيمة لهم ، كما كانوا يريدون حينما بادروها بالعدوان .

لقد انتهى كل شىء . . . ولم يعد فى وسع القريتين أن تقوما بأى قتال جديد ؛ فقد ثكلتا أغلب رجالهما ، كما فقدتا سلامهما وهناءتهما .

وانطوى كل بيت فى القريتين على أحزانه وآلامه المريعة ، وأخذتا تعانيان إلى جانب الأحزان مرارة الجوع ؛ فقد بدأت المجاعة تعضهما بأنياب حداد قاسية ، نتيجة للدمار الذى أصاب مانيا وحقولها وبساتينها .

وتعددت مآسى الحرب والمجاعة ، فنتجت عنهما حوادث مريعة : فمرض كثيرون ، وفقد عدد من العجائز والأرامل والشيوخ عقولهم ، وهام البعض على وجوههم فى القفار من شدة الجزع وعظم المصيبة ، واضطر البعض أن يغادروا القريتين إلى أماكن أخرى هرباً من المجاعة .

والأطفال الذين ولدوا فى مانيا ، وعاشت طفولتهم فى أحضان السلام والطمأنينة ، غرقت الآن طفولتهم فى الشقاء والتعاسة ، وتحولت حلاوة حياتهم إلى مرارة لا تطاق .

* * *

وفى بيت الشيخ ساڤيو كان ابنه أنطونيو يعانى سكرات الموت ، من الجراح التى أصيب بها فى القتال الأخير ، وظل فاقداً وعيه مدة ثلاثة أيام متوالية ؛ ومن حول فراشه عيون لا تنشف فيها الدموع ، وقلوب لا تصمت فيها الصلوات .

لقد تهدمت حياة والده الشيخ ، وتحطم قلب فتاته لونا ، وجفت النضارة فى عودها الذى كان يطفح بالطراوة والحيوية والمرح ، وفى قلب والده ووالدة فتاته انغرست سهام قاتلة من الهم والأسى .

كان دمه قد نزف بكثرة ، وتكاد جميع العلاجات التى استعملت فى تطبيبه تفقد مفعولها ، والأمل فى شفائه أصبح أوهى من خيوط العنكبوت . وكانت لونا بجانب سريره ، تبذل له من حبها وحنانها ما هو أقوى أثراً من العلاج .

وفى لحظة يأس محرق ، نهضت لونا من جانب سريره وفى صدرها شهقات ، وفى عيونها دموع حارة ملتهبة ؛ وخرجت تسير ولا تدرى إلى أين تمضى ، ولكنها وجدت نفسها أخيراً عند الصخرة التى طالما شهدت خلواتها مع فتاها الحبيب ، هذا

الفتى الذى تخشى أن تفقده إلى الأبد .

وعلى صخرة الحنين جلست لونا ، تغمر الحرفين اللذين نقشتهما يداها ويدا أنطونيو بالقبلات والدموع ، وتنزع من صدرها الزفرات اللاهبة حرة متفجرة فى وجه السماء . . .

إن كل ما حولها يبعث على الكآبة القاتلة . . . الأرض التى جفت وخلفت لبقايا الناس فى قريتها قساوة الجوع . . . والسلام الذى فقدته القرية . . . والجمال والربيع الدائم فى المروج والحقول والروابى ، الذى امحى ولم يبق منه سوى الذكرى الرهيبة . . .

كل هذا يطوف الآن بخيالها ، فتبكى له بحرارة محرقة . . . ولكن هناك ما هو أعلى وأحب من كل ذلك . . . إنه فتاها الذى لا تدرى : أتسمع صوته مرة أخرى ، أم يرحل عنها إلى اللانهاية ؟

والخلوات الجميلة التى كانت تستسلم فيها إلى أحضانه الحنونة ، وتتلقى فيها حرارة قبلاته اللافحة ، وتستمع فيها إلى صوته العذب يملأ حياتها بالأحلام والرؤى الحلوة الحلوة . . . أتصبح هذه كلها ذكريات تنحفر فى قلبها كالأخاديد العميقة فى التراب ؟ . . .

كل ما أمامها الآن كئيب كقلبها المعذب . . . وكل شىء يهمس فى نفسها بذكرى . حتى عروق السوسن والحبق التى

كانت فيما مضى تصغى إلى همساتها مع فتاها ، فى لقاءاتهما اليومية ، ثم لا تلبث أن تتحول إلى باقات صغيرة ، يحملانها إلى المعبد ليعطرا بها قدمى ڤينوس . . . هذه العروق الجميلة لم يعد لها وجود . . . فالأرض بعدها جرداء عابسة يابسة . . .

ومرت فى خيالها صور المعركة التى أصيب فيها فتاها إصابته الخطرة ، التى يخشى أن تذهب بحياته الغالية .

كانت المعركة فى يومها الثانى على أشد ضراوتها ، وأنطونيو يضرب بفأسه بشجاعة خارقة ، ويدوس هو ورفاقه على جثث القتلى والجرحى مستبسلين . وإذا صوت على مقربة منه يناديه بسخرية وشماتة وتحدٍّ قائلا :

ــ أنطونيو ؛ هل أخبرتك فتاتك بما قلته لها يوم حطمت سلتها فى جونو ؟ !

فاستدار أنطونيو بغضب وسرعة إلى مصدر الصوت ، كمن أحس بلدغة مؤلمة ، فرأى شاباً من الجونيين يتقدم نحوه ، وفى يده سيف قصير حاد ، وعلى صدره درع حديدية تلمع بأشعة الشمس :

فقال أنطونيو بغضب وهو يخفّ لملاقاته :

ــ أكنت أنت أيها القذر الجبان ؟ !

ــ نعم ، أنا الذى سيستولى على عروسك ، بعد أن يقضى على حياتك ، كما سيستولى على أرضك . . .

ــ أيها الجبان الوقح ؛ ستعلم أينا الذى سيقضى على حياة الآخر .

ولا يدرى أنطونيو أية قوة عجيبة حلت فيه فى تلك اللحظة ؛ وقبل أن يدع لخصمه فرصة للاقتراب منه ، كان قد عاجله بضربة من فأسه على يده التى تحمل السيف ، فإذا هى تسقط معه إلى الأرض . وبسرعة البرق انقض أنطونيو ، وأهوى بفأسه على رأس خصمه الجونى بضربتين متتابعتين ، حطمتا خوذته الفولاذية ورأسه معاً ، ثم تركه يهوى إلى الأرض كالصخرة المتدحرجة من رأس جبل ، بعد أن استولى على سيفه الحاد .

ولكن الجونيين تكاثروا على أنطونيو ، فمضى يضرب بأقصى قوته ، بالسيف فى يد ، والفأس فى اليد الأخرى ، حتى كلت يداه فلم يعد فى وسعه أن يستمر فى الضرب . فجعل يتراجع إلى الخلف ، ليستجمع قواه قليلا ثم يعاود الكرة على خصومه ، ولكن طعنة رمح أصابته فى أعلى صدره عند الكتف ، وأخرى فى جنبه قريباً من القلب . فسقط على الأرض يتخبط فى دمه .

وهمّ أحد الجونيين بأن ينتزع رأسه بسيفه ، لولا أن أحد المانيين بادره بطعنة فى صدره ألقته على الأرض صريعاً .

وأسرع بعض المانيين يحملون أنطونيو ، ويخرجون به من قلب المعركة إلى خلف الصفوف ، ثم سلموه إلى لونا وبعض

النساء اللواتى كن خلف خطوط القتال يعنين بالجرحى ، ويحملنهم إلى القرية لمعالجتهم .

فلما رأته لونا كادت تفقد وعيها ، وانطلقت منها صرخة قوية متفجرة بالذعر والألم . وانكفأت على جراحه بوجهها تغسلها بالدموع . ولكن رفيقاتها أسرعن ينهضنها ، وحملنها هى وأنطونيو فى عربة ذات جوادين كانت معهن لنقل الجرحى والقتلى ، وأسرعن بهما نحو القرية حيث سلّمنه إلى والده ؛ وبقيت لونا معه ، تغسل هى وأمها جراحه وتضمدانها .

* * *

وانقضى أكثر من ساعة ولونا وحدها على الصخرة ، لا تهدأ لها زفرة ، ولا تجف لها دموع . حتى إذا تعبت من البكاء ، نهضت لتعود إلى البيت لترى فتاها الحبيب . ولم تنس أن تعرج على المعبد . أو لعل قدميها قد قادتاها بغير قصد إلى المعبد ، كعادتهما فى الماضى الجميل . . . وهناك وقفت أمام تمثال فينوس ، وتذكرت كيف كانت تقف هناك كل مساء مع أنطونيو ، وفى أيديهما الأزهار الجميلة ، قربان الحب لهذه الإلهة الحلوة .

تذكرت هذا فعادت العبرات تتدحرج من عينيها بحرارة شديدة . فانطرحت على وجهها أمام التمثال واستسلمت إلى اليأس والدموع ، حتى خف إليها الكاهن العجوز ، يسندها

قليلا ، ويؤاسيها بألفاظ رقيقة ، لكنها لم تشعر لها بأى معنى فى ساعتها تلك .

ومن خلال دموعها الثائرة ، رفعت عينيها إلى التمثال ، وقالت تناجيه بصوت متقطع من الألم :

– لماذا تخليت عنا هكذا يا إلهة القلوب البريئة ؟ لقد كنت أجىء إليك كل يوم وقلبي يرقص ببهجة الحياة ، ويداى مليئتان بالأزاهير ، أضمخ بها قدميك الطاهرتين . ولم أكن قط وحيدة ، فقد كان أنطونيو دائماً معى يزين لى الحياة ، إن لم يكن بشخصه الحبيب ، فبخياله الحلو الذى كان يملؤنى فرحاً ، ويشعرنى بأن الدنيا كلها لى وله . . . ولكننى الآن أجىء إليك وقلبي لا يستطيع احتمال وحشته وآلامه ، لأن رفيقى ليس إلى جانبي ، وخياله الآن يعذب روحى ويمزق قلبي بآلامه ؛ ويداى فى هذه المرة فارغتان ، لأن الأرض لم تعد تستطيع أن تمنحنى ما أهديه إليك .

وانخرطت من جديد فى البكاء المرير . فلما استطاعت أن تمالك نفسها قليلا ، عادت تخاطب التمثال وتقول :

– سأحتمل كل شىء بصبر ، يا إلهتى الجميلة ، إذا استطعت أن تعيدى إلى أنطونيو . إنه وحده الذى يحبب إلى الحياة ، ويمنح نفسى البهجة . ستزول وحشتى وأحزانى حينما أراه يضحك لى وللحياة كما كان ؛ وسنعود معاً ننعش الأرض

بتعبنا ، ونحيي بشاشتها من جديد بقوة سواعدنا ، لنقدم إليك باقات الزهر العطرة كل مساء . فهبينى إياه يا ڤينوس الحلوة الحنونة ، ودعينا نقدم لك شكرنا مدى الحياة .

ثم خرجت لونا من المعبد ، وهى تمسح الدموع المتحدرة على خديها اللذين أذبل الحزن نضارتهما . وعادت لترى أنطونيو ، وتجلس إلى جانب سريره تعنى به ؛ ولكنها تعود وهى تخشى أن لا تجد فيه نفساً يتردد . . . وكم كانت ترتجف حينما يمر بخيالها هذا الخاطر المرعب ، وهى تقطع المسافة القصيرة بين المعبد والبيت .

ولكن . . .

ما أشد ما كانت فرحتها حينما وصلت إلى البيت فوجدت أنطونيو قد فتح عينيه ، وصحا قليلا من غيبوبته الطويلة ، واستطاع أن يبتسم لها حينما رآها داخلة عليه . . . ولكنه لم يستطع أن يتكلم .

لقد استجابت ڤينوس لصلاتها . . . فما أشد سعادتها بهذا ! . . .

وأسرعت لونا فألقت بجسمها على سريره ، وطوقته بذراعيها وهى تشهق بزفراتها ودموعها وتهتف :

ـــ أنطونيو ! أنطونيو ! ليس للحياة طعم ولا بهجة بدونك يا حبيبي !

ثم جلست إلى جانبه ، وفى قلبها صلاة دافئة ملؤها الشكر للإلهة الجميلة التى استجابت صلاتها ، وأعادت فتاها إلى الحياة .

١٢

فى الوقت الذى كان أنطونيو يتقدم فيه بخطى بطيئة نحو العافية ، كان والده الشيخ الحزين يبتعد عنها بخطى سريعة .

لقد تكاتفت على شيخوخته الهموم والأحزان ؛ فالسلام الذى فقدته قريته ، والشباب الذى طحنته أطماع اللصوص المعتدين ؛ والمآسى التى دخلت كل بيت فى قريتـــه ؛ والأرض التى عادت جرداء يابسة التراب ؛ والمجاعة التى أصابت بضراوتها كثيراً من بيوت القرية ؛ والجرحى الذين لا يزالون بين الموت والحياة من زهرات قريته ، وعددهم يزيد على المائة ؛ وإلى جانب كل ذلك ولده الممدد على سرير الآلام ، بعد الجراح العميقة التى أصيب بها فى القتال . . . كل أولئك صدمات أكثر وأقسى من أن يتحملها جسم ضعيف كجسم الشيخ سافيو .

ولو اقتصرت المصيبة على ولده وحده — وما أعز ولده عنده ! — أو اكتفت به هو نفسه وبولده معاً ، لكان يتقبل

التضحية عن قريته وأهلها بملء الرضى ، فكل تضحية فى سبيل سلام قريته وسعادة أهلها ، حلوة لذيذة .

والأرض التى ماتت . . . لقد كان يود لو عادت إليه قوته ونشاطه لكى يعمل فى الأرض من جديد ، ويعوض عن الرجال الأقوياء الذين فقدتهم القرية وهى أحوج ما تكون إليهم . . . ولكن أنى ليديه الباليتين أن تمنحا التراب حياة جديدة ؟! .. لقد كانت هذه الحقيقة تزيد من مرارة نفسه، ومن آلام جسمه.

وهكذا لم ينهض أنطونيو من فراش المرض ، إلا ليشترك فى تشييع والده إلى القبر . وكانت تلك صدمة مؤلمة ، جعلته يصاب بنكسة ألزمته الفراش مدة أخرى . ولولا ما كان يجده من حنان لونا وحبها وعنايتها ، لما كان له أمل بالحياة .

لقد كانت لونا هى الخيط الذى جذبه إلى شاطئ الحياة ، فعاد بعد أن كاد يضع قدميه على الشاطئ الآخر البعيد .

ولكن عودته إلى الحياة لم ترافقها عودة البهجة إلى قلبه .
إن كل ما فى قريته كئيب كآبة الموت :

الأرض والسماء . . .

الوادى والتلال . . .

الناس والحيوانات . . .

حتى طيور السماء خرست فى حناجرها الأغاريد .

لقد زالت البهجة من القلوب والوجوه ، وخيم الحزن القاتل

على كل بيت فى القرية . فمن أين يجىء لنفسه بالفرح ؟

إن وجود لونا إلى جانبه ، يبعث فى نفسه بصيصاً من العزاء ، ولكنه عزاء ضئيل . إن حب لونا هو اللذة الوحيدة فى حياته ؛ ولكن المآسى التى حلت بقريته ، أكبر من أن يستطيع إنسان أن يتعزى فى وسطها ، لا سيما إذا كان إنساناً كبير القلب ، بعيداً عن الأنانية ومحبًّا للآخرين ، مثل أنطونيو .

لقد كان والده شيخ قريته وقائدها وحكيمها ؛ بل لقد كان الجميع ينظرون إليه كأب لهم . فلما ذهب إلى الأبدية فى أتعس الظروف ، وشيعته القرية إلى القبر ببقايا الدموع التى لم تجف بعد فى مآقيها ، وقفت القرية كلها على القبر تضع ثقتها وأمالها من بعده فى ابنه أنطونيو . فكان على أنطونيو إذن أن يخلف والده فى المسؤولية الكبيرة ، وأن يعيد القرية إلى الحياة من جديد . وما أصعبها من مهمة فى مثل هذه الظروف .

إنها لمسؤولية أعظم من أن يقوم بها إنسان وحده ؛ مسؤولية يرزح تحتها الجبابرة . ولكن أنطونيو سيقوم بها ، أو على الأقل سيعمل كل ما فى طاقته ليقوم بها بإخلاص ، فيحقق ثقة القرية ورجاءها به . وما دامت لونا إلى جانبه ، فوجودها سيبعث فى نفسه العزم ، وسينفخ فيه النشاط ، وسيلهمه السير فى الطريق الأصوب

* * *

حينما استرد أنطونيو صحته ، بعد أربعة أسابيع من المعركة، ذهب مع لونا إلى صخرة الحنين ، ليتخففا قليلا من أحزانهما ، وليطيرا على أجنحة الخيال إلى الأيام الجميلة السعيدة ، التى فرت بعيداً بعيداً كالطيور المهاجرة .

وعلى الصخرة التى شهدت خلوات غرامهما البرىء الأمين، وميثاق حبهما البكر ، تعاهدا مرة ثانية . . . ولكن على أن لا يتم قرانهما إلا بعد أن تعود إلى قريتهما حياتها القديمة وسلامها، وتعود أرضها تضحك فى الفصول الأربعة ، كما كانت من قبل ، فتشترك القرية جميعها فى فرحتهما .

قال أنطونيو :

— ليس من السهل أن نطبع البسمات على الثغور التى جففها الحزن ؛ ولكن علينا أن نعمل معاً لنفهم الجميع أن الاستسلام إلى الحزن موت بطىء . ولذلك يجب أن يتعاون كل من لا يزال فى القرية من النساء والشيوخ والأطفال والرجال، وكل من أبل من جراحه من المحاربين الجرحى ، على إنعاش الأرض من جديد . وما تنتعش الأرض إلا بالعمل النشيط المخلص ، كما كنا نفعل من قبل . فالعمل ينشط الجسم ، ويجعل المرء قادراً على تجاهل الألم والتغلب عليه ؛ وهو الوسيلة الوحيدة لإعادة الحياة إلى الأرض . ومتى ضحكت المروج

والبساتين ، عادت إلى النفوس حلاوة الحياة وسعادتها ، وانعكست بسمات الروابى والحقول ، بسماتِ تعزية على ثغور الحزانى والمتألمين .

فقالت لونا :

ـــ وما الذى تريد منى أن أفعله فى هذا السبيل ؟

فقال :

ـــ تدخلين كل بيت ، لتبثى الشجاعة فى نفوس الأطفال والنساء ، وتساعدى على تضميد الجراح فى أجسام الجرحى ونفوسهم ؛ كما أدخل أنا إلى كل بيت ، لأعيد الإيمان بالعمل وبالأرض إلى نفوس بقايا الرجال الأصحاء والذين أبلّوا من جراحهم ، والشيوخ . ومتى استطعنا أن نعيد إليهم الإيمان والشجاعة والثقة ، فستعود قريتنا تضحك لنا ، فننسى بضحكاتها أحزاننا بعض النسيان ؛ ثم يتغلب الجميع على الألم بمرور الأيام .

فقالت لونا :

ـــ سأفعل ما تريد ، فإننى مقتنعة كل الاقتناع بصواب رأيك . وسيكون قلبك النبيل دليلى ومرشدى فى العمل . فلترفع عنا الآلهة غضبها ، ولتوفقنا فى مهمتنا الصعبة .

قال أنطونيو :

ـــ سنبدأ عملنا حالا ، من اليوم ؛ فلا فائدة من التأخير .

ثم توقف قليلا ينظر حوله ، متأملا الأرض اليابسة ، التى كانت من قبل تضاحك الشمس وتغامز الكواكب ؛ فعاد يقول :

— لم يعد فى الأرض أزهار فنحملها إلى المعبد ، كما اعتدنا سابقاً ، لنضعها على قدمى ڤينوس ؛ ولم يعد فى الأشجار ثمر ، ولا فى الحقول زرع ، فنحمل منه إلى هيكل سيريس . فلنحمل إليها إذن حفنتين من تراب الأرض لنضعه على قدميها ، ونلتمس منها أن تباركه ، وأن تعيد الطراوة والخصب والحياة إلى هذا التراب الذى جف .

وحمل أنطونيو ولونا حفنتين من التراب ، ومضيا إلى المعبد . وهناك وقفا أمام تمثال سيريس ، ورفعا أيديهما بالتراب ، وتمتمت شفاههما بصلاة قصيرة حارة ، ثم وضعا التراب عند قدميها .

واستدارا بعد ذلك معاً نحو تمثال ڤينوس ، وقد ترقرقت فى عيونهما دموع . وقال أنطونيو :

— سنعود إليك أيتها الإلهة الحلوة ، بعد حين ، وفى أيدينا الباقات الجميلة كعهدك بنا . فساعدينا ليعود السلام إلى قلوبنا ، والجمال إلى حياتنا ، والبهجة إلى نفوسنا ، والخير إلى أرضنا .

ثم خرج أنطونيو ولونا من المعبد عائدين إلى بيتيهما ، وفى قلبيهما أمل يشرق من ظلمة الأحزان الهائلة ، فينير أمامهما

المستقبل العابس ، ويمنيهما بسعادة لن يتأخر أوانها طويلا .

لقد كان أنطونيو يعتقد بأن البطولة الحقة ليست فى التغلب على الأعداء فى ساحة القتال فحسب ، ولكنها تكون أعظم كثيراً عندما يستطيع المرء أن يتغلب على الألم والضعف أيضاً .

وبدأ عمله وعمل فتاته من تلك اللحظة ؛ فهما يزوران كل بيت ، ويشيعان الابتسامات فى كل وجه حزين ، ويبثان التعزية والشجاعة والإيمان فى كل نفس ؛ فإذا حرارة الحياة تتمدد شيئاً فشيئاً فى النفوس التى هدها الألم ، والقلوب التى حطمتها المأساة ؛ فتقصف شيئاً فشيئاً ، وبكثير من البطء ، أغصان الكآبة التى خيم ظلها الأسود الكريه على كل بيت فى القرية .

١٣

ومرت عدة أسابيع على المأساة ، ثم طالت الأسابيع إلى أشهر ثلاثة ، لم يندمل فيها جرح فى قلب ، ولم يهدأ حزن فى نفس .

إن انتصارها الذى ضمن لها الحفاظ على أرضها ، لم يكن أحسن حالا من انكسار جارتها المعتدية ؛ فهما متساويتان فى النتائج الأليمة ؛ متساويتان فى الخسارة الآدمية الهائلة ، من الجانبين ، وفى عدد الجرحى والذين أصيبوا بعاهات سيطول أمدها ، أو ستستمر مدى الحياة ؛ ومتساويتان فى الآلام التى تخيم على بيوتهما بشكل قاتل .

ولكن آلام مانيا المنتصرة أشد وقعاً من آلام جارتها المنكسرة ، لأنها خسرت فوق الرجال ثروة الموسم كلها ، وجهود العمر الطويل فى الأرض ، والثروة النباتية الكبيرة من الأشجار التى كانت تملأ بساتينها . فهى الآن فى حاجة إلى البدء من جـــديد . وهكذا لم يكن هناك تعادل فى الخسارة بين الغالب والمغلوب ، بل زادت خسارة الأول كثيراً . . . أوليست هذه طبيعة الحروب ؟ !

وكانت الأيام تمر قاسية بطيئة ، وكأنها تطحن حبات

القلوب ونور العيون فى مانيا . ولكن أنطونيو ولونا لم يفترا عن العمل فى تأدية رسالتهما الجديدة ، رسالة التعزية وإعادة الإيمان والثقة إلى النفوس الجازعة القانطة .

ولم يكن شعور جارتهم جونو بالمأساة دون شعورهم بفداحتها . لقد دفع الحسد والغرور والطمع أهل تلك القرية الشقية إلى الاعتداء ، فكان اعتداؤهم وبالا عليهم ، كما كان وبالا على جيرانهم ؛ فبيوتهم غرقى فى الأحزان ، والتعزية استعصت على قلوبهم ؛ والمجاعة الهائلة زادت ضحاياها بينهم على ضحايا القتال ، وانتشرت معها الأمراض ، فأصبحت حياة الكثيرين مهددة بالفناء .

ولم تكن هذه الفجائع الهائلة التى نزلت بالقريتين مما يستطيع أن يحتمله قلب ، أو يرتاح إليه ضمير .

حتى ضمير الإله الشرير مارس عاد يتحرك ويخزه ، وهو الذى لم يتحرك قط لمأساة ، ولا اهتز لشر ، لأنه كان مصدر جميع الشرور .

كان مارس جالساً فى عربته الحربية ، على ظهر غيمة سوداء سريعة . ولكنه كان فى هذه المرة شارد الفكر ، ينظر إلى الأرض تحته ، فلا يرى إلا صور المآسى التى زرعها بيده ، فزرعت فى الأرض الصمت والوحشة والخراب والموت ، بفعل إرادته .

وإذا بصوت ڤينوس السماوى الحزين يقطع عليه شروده؛ وسمعه يقول :

ــ أرأيت أيها الإله الجبار ماذا فعلت يداك ؟ أتراك الآن قريراً بهذا المصير القاسى ، الذى فرضته بجبروتك على أناس أبرياء لم يعرفوا غير السلام فى حياتهم ؟

ونظر مارس ، فإذا الإلهتان ڤينوس وسيريس تقفان إلى جانبه . فتخاذل جسمه الجبار أمام نظرات العتاب الحزين التى كانتا ترميانه بها ، ودموع الألم التى كانت تندى بها عيونهما الجميلة . ولم يشأ أن يجيب بشىء ، فقد كان فى ضميره صراع أقسى عليه من ملامتهما .

وتكلمت رفيقتها سيريس بعدها ، فقالت :

ــ وهذه الأرض التى طالما ضاحكت الشمس والقمر والنجوم ، وأعربت للناس عن مقدرة الآلهة ومحبتهم لهم ، فأطلقت القلوب بالشكر ، والألسنة بالتسبيح ، والأيدى بصنع المعابد والمذابح والتماثيل المقدسة . . . أيرضيك الآن أنها جفت ، وقتلت بجفافها شكرنا من القلوب ، وتسابيحنا من الألسنة ، وأوقفت كل نوع من العبادة لنا ؟ أليس هذا عكس ما قلته لنا فى حضرة جوبيتر من قبل ؟

ولم يطق الإله الجبار هذا العتاب ، وما يعانيه فى داخله من عذاب الضمير ؛ فإذا به يستدير نحو الإلهتين الحزينتين ،

وينزع خوذته عن رأسه ، وقميصه الفولاذى المزرد عن جسمه ، ويلقى بهما وبسيفه عند أقدام الإلهتين ، ثم يجثو أمامهما قائلا :

ــ لقد آن لمارس ، المحارب الجبار ، أن يخلع درعه وخوذته ، وأن يقذف بمعدات حربه كلها إلى النار ، ويخرس الصواعق التى طالما روع بها البشرية الآمنة . إن قلبى قد تمزق فى داخلى ، أيتها الزميلتان الطيبتان ، وضميرى أدمته الندامة من مناظر الدماء والأهوال التى ارتكبتها يداى فى الأرض . لقد عجنت الأرض بالدماء والمآسى ، وها أنا ذا أعود نادماً على شرورى الكثيرة . وهذه دروعى وآلات حربى ، أحرقها أمامكما ندامة ؛ ومركبتى النارية هذه سأحولها إلى تراب ؛ وسأكفر عن آثامى المريعة بأن أحمل الرفش والمعول ، وأنزل إلى الأرض أعزقها وأفلحها مع بقايا أهلها ، لأعيد إليهم بيدى ما انتزعته منهم بهاتين اليدين المجرمتين نفسيهما . . . وعهد على أن لا أجفف عن جسدى قطرة من العرق ، قبل أن يعود الخصب إلى الحقول والبساتين ؛ ولا أعود إلى امتطاء الغيوم ، قبل أن أرى الحبق والسوسن والشقيق ترجع إلى عروق الصخور ، وقبل أن تشرق الكؤوس الجميلة الملونة فى رؤوس الزنابق والأقاح ، فتمتلئ بها المروج ورؤوس الجبال ، وتضحك بها قبور المحاربين الأبرياء الذين ذهبوا ضحية جريمتى . ولن

تنفرج شفتاى عن ابتسامة ، حتى أطبع بهاتين الشفتين عديداً من القبل الدافئة على جباه الحملان والعجول الصغيرة ، وهى ترضع من أثداء أمهاتها التى ترعى فى المروج الخضر . . .

* * *

وفى الأفق البعيد شاهد السكان فى قرية مانيا حمرة كاللهيب العظيم ، تغمر أطراف السماء بشكل غريب . ولم تكن الشمس قد وصلت إلى هناك بعد ، فهى ما تزال تتربع فى صدر الجلد .
فدهش الجميع لهذا المنظر المرعب ، وتوجسوا من شر جديد . . .

وهرع الجميع إلى المعبد ليسألوا الآلهة أن تحميهم من كل شر جديد لا تزال تخبئه لهم الأيام ؛ فلم يعد لديهم قدرة على تحمل أى شىء مؤلم .

ولكن ابتسامتين مشرقتين على شفاه تمثالى ڤينوس وسيريس تستقبلانهم فى داخل المعبد ، فتعيدان الطمأنينة إلى النفوس التى أذهلتها المآسى الكبيرة . وإذا صوت حلو يتردد فى فضاء المعبد ، وحفيف أجنحة غير منظورة . . . وكان الصوت ينشد قائلا :

« لقد حرق مارس معداته . . . وسيمرع الخصب منذ اليوم فى أرضكم ، والحب والسلام فى قلوبكم إلى الأبد . . . »

* * *

وفى طرف الطريق المؤدية إلى جونو ، ظهر علم أبيض يحمله عشرة رجال قادمين إلى مانيا . فلما وصلوا تلقاهم المانيون

مستعلمين ؛ فإذا هم وفد من جارتهم جونو ، جاؤوا يلتمسون الصفح .

فأشرقت أسارير المانيين ، ومضوا بهم إلى المعبد . وأمام هيكل جوبيتر تصافحت الأيدى ، وتعاقدت على السلام والتعاون والمحبة .

وقال رئيس الوفد الجنونى :

ـ اتشهد الآلهة جميعاً على أن القلوب التى تمزق فيها السلام ، ستعود بعد اليوم لا تعرف غير الصفاء والحب الأخوى المخلص ؛ وأن دماءنا ودماءكم التى اختلطت على بقعة واسعة من ترابكم ، وعلى الطريق التى تصل بين قريتكم وقريتنا ، ستكون الرباط المتين الذى يوثق بيننا وبينكم . وقد جئنا نعلن لكم عن استعداد كل شاب وكل شيخ وكل امرأة أو فتاة فى قريتنا للمساهمة فى إصلاح الأرض التى كنا سبباً فى جفافها ، لتعود تمرع وتضحك لكم بالنعيم كما كانت . هذا عهد لكم علينا ، وجميعنا فى خدمتكم تكفيراً عن إساءتنا إليكم ، وتعكيرنا للسلام فى أرضكم .

* * *

منذ ذلك اليوم ، عادت الفؤوس والمحاريث تفتح فى حقول مانيا شقوقاً جديدة ، ينسكب فيها العرق الغزير الحارّ ، وعادت العروق الصغيرة الخضراء تطل برؤوسها من شقوق التراب ؛

والشجيرات تتسامى بقاماتها الدقيقة ، وكأنما تواعد طيور السماء المشردة بيوم غير بعيد ، تصبح فيه أشجاراً ضخمة تمنح القرية ظلا وثمراً ، وتمنح طيور السماء أعشاشاً ومقيلا ، ومعابد للترانيم الحلوة .

وعلى صخرة الحنين جلس أنطونيو ولونا يتأملان الجموع العاملة فى الحقول ، وفى قلبيهما فرح ، وفى عيونهما بريق مسكر .

وقال لها وهما يغيبان فى عناق طويل سعيد :

ـــ عندما تتفتح أكاليل الأقحوان ، وبراعم الحبق والشقيق فى عروق هذه الصخور ، وعلى المروج والروابى ، سيقوم فى مانيا أول عرس بعد المأساة ، وسيكون عرساً للقرية كلها ، ولجارتنا جونو كذلك ، تشترك فيه قريتانا معاً بأغاريد أهلهما ، كما تشتركان فيه بمروجهما الضاحكة ، وحقولهما التى لن يعود الخصب ينقطع عنها .

* * *

وفى الفضاء فوقهما ظهرت حمامة بيضاء ترفرف ، وفى فمها غصن زيتون صغير ، جاءت تحمله من مروج بعيدة . . .

مجموعة سيرة الرسول

مجموعة جديدة تضمنت حياة الرسول الكريم ، وجمعت فيها الحقائق التي يجب أن يعرفها كل مسلم حتى يكون على علم بأهم التطورات المختلفة التي لابست حياة النبي العظيم ويتبين ما كان له من أثر في العالم كله : قديمه وحديثه . وفي كل حادثة وردت مواضع للعظة والاعتبار ، ودلائل على أن حياة محمد كانت حياة مثالية كريمة على الله والناس وتصور لنا البذل والتضحية في أسمى الصور وأرق المعاني .

١ — المولد
٢ — النشأة
٣ — الوحي
٤ — فجر الدعوة
٥ — مشرق الدعوة
٦ — سحاب وضباب
٧ — نور وضياء
٨ — مع القبائل
٩ — الهجرة
١٠ — غزوة بدر
١١ — غزوة أحد
١٢ — غزوة الأحزاب
١٣ — فتح مكة
١٤ — الوفاة

مجموعة قصص الأنبياء

مجموعة جديدة فى أسلوب سهل ممتع ، وإخراج أنيق جميل ، للصغار والكبار ، تصف حياة الأنبياء ، وجليل أعمالهم ، وتسرد ما صادفهم من حوادث مع أقوامهم ، خالية من الشوائب والإسرائيليات حتى تظل العقيدة سليمة نقية تمكن الإنسان من التقرب إلى الله تعالى وحده ، والاعتصام بدينه وتعاليمه ، والتحلى بالفضائل الحسنة ، والتمسك بالأخلاق الكريمة .

١ – آدم
٢ – نوح
٣ – هود
٤ – صالح
٥ – إبراهيم الخليل
٦ – إسماعيل الذبيح
٧ – يوسف الصديق
٨ – يوسف العفيف
٩ – يوسف على خزائن مصر .
١٠ – موسى الرضيع
١١ – موسى والسحرة
١٢ – موسى و بنو إسرائيل
١٣ – داوود
١٤ – سليمان وملك الجزائر
١٥ – سليمان و بلقيس
١٦ – يونس
١٧ – أيوب

ثمن النسخة ٣ قروش

دار المعارف